الطيرُ الأبابيل

حفنى مصطفى حفنى

تليفون المؤلف : ٢٥٣٤٤٣٢

رقم الإيداع : ٣٢٨٦ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى : 3 - 1271 - 17 - 977

مطبعة الحرف الذهبى

ت : ٥٦١٩٦٨٦

اللهم قد عيلَ الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشر الرعب ، وبيدك يا رب أزمّة القلوب ، فاجمع الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، واردد الحق إلى أهله .

إهداء

- إلى الذين يَعشَقُون السلام عِشقَهُم للماء البارد في اليوم القائظ ، ويَمْقُتون الحرب وسفك الدماء مَقتهم للداء العُضال .
- إلى شهداء السلام الذين ينعمون بالجِنان وعد الحق وبقطوفها وثِمارها ، وعسلها ، فهنيئًا لهم الجنة وهنيئًا لهم الدرجة .
- إلى طيور الحمام ، التى لبست ملابس الطير الأبابيل ، وحملت مشاعل السلام ، فما ضعفت ، ولا استكانت .
- إلى كُل هؤلاء ، وإلى القُراء الأعزاء ، أرفع هذا الكتاب .

المؤلف

مقدمة

الحربُ والسلام كالنور والظلام ، أحدهما مشرق ، والآخرُ حالكُ السواد ، بل هما كالموت والحياة .. فالحرب وإن كانت شرعية فهي في النهاية خراب ، ودمار ، وقتل للأرواح ، ووأد للأحلام ، وتشريد للأبرياء ، وقل بعد ذلك ماشئْت .

والسلام هو الحياة التي ينعم فيها الإنسان بالدفء الأُسَرِىّ والأمان والاستقرار .. فإن كان هذا هو الحال بالنسبة للحرب الشرعية ، فما هو الحال إذاً بالنسبة لتلك الحروب التي تدور رحاها الآن ؟ والتي يقوم بوصفها البعض على أنها حروب الباطل ضد الحق ، ويصفها البعض الآخر بأنها حروب الباطل ضد الباطل .

والدعوة إلى السلام تدعونا إلى أن نفكر ، هل الحرب لها وجه واحد ، أم لها عدة وجوه ؟ وهل هي واحدةٌ على مدار حقَب التاريخ ، أم هي متعددة الأنواع؟ وما هي دوافع الحرب بين دولة وأخرى ؟ وما هي معايير القوة ، هل هي المال كما يتوهم البعض ، أم هي العلم والتكنولوجيا ؟ وما الذي أدى بالضعفاء إلى الضعف الذي يطالعنا كل يوم على شاشات التلفاز ، هل هو البُعد كما يجزم البعض عن مناهل العلم والثقافة . أم هو كما يزعم البعض الخوف الذي لا مبرر له ، والذي ينسجه البعد عن السماء ؟

فإن كان السلام هو مطلب العقلاء ، فإن الحرب هي أسلوب البلهاء الذين تصور لهم عقولهم أنه بالقوة والمال تُرْهبُ الدولة المنفردة العالمَ ، والحقيقة أن القوة سلاح ذو حدين ، أحدهما نافع والثاني مميت ، وأن المال ظلٌّ يزيد وينحسر ، وأن كلاهما وَهْمٌ قد يؤدي بصاحبه إلى غيابات الجب ، وهو الذي يتخيل أنه يسير في الروضة ، أو بالوادي الرحيب .

ولا شك أن الحروب الجائرة التى تدور رحاها الآن قد أصابتنا حكاماً ومحكومين بالغُصَّة ، حتى أنك ترى بعضنا يغمض عينيه ، ويسد أذنيه حتى لا يرى ولا يسمع ما أصبح يزلزل كيانه الداخلى .. والغريب أن مشاهد القتل وسفك الدماء بدون وجه حق أصبحنا لا نسعى إلى متابعتها ، بل صارت هى التى تتبعنا وتلاحقنا فى كل مكان ، حتى أصابتنا بالإجهاد والمرض العُضال .

فإن قلنا إن هناك شعباً ينسجم مع حكومة الطغيان ، ويتمرد آخر عليها ولا يتجاوب معها ، ففى المقابل علينا أن نقول : إن هناك دولاً لا ترى عيونها إلا اللونين الأبيض والأخضر ، وأن هناك دولاً أخرى لا ترى عيونها إلااللونين الأحمر والأسود ؛ لأنها تستمد قوتها من قلوب أوْردَتُها لا تضُخَّ إلا الجفاء ، وشرايينها لا تضُخَّ إلا الجور ، فتبًّا لها من قلوب ، وتبًّا لها من عيون .

ولا أحسبُ أن الحمام وهو رمز السلام كما نُطلق عليه نحن ، يرضى أن يرتدى هذا الثوب الذى أنعم به عليه الإنسان ، ولو أنطق الله الحمام لقال إنه براءٌ من هذا الثوب ، ومن غصن الزيتون الذى يهان كل منهما فى اليوم مئات المرات ، ولقال أيضاً فى حزنٍ ولوعة : يا بنى البشر تدَّعون أن الحمام هو رمز السلام وسفيره ، والحمام هو وصغاره يتجرعون كئوس المنية بأسلحة لم يَعهد مثلَها مجتمعُ الحمام من قبل .. ناهيكم عن الفزع والرعب الذى تعيشه هذه الطيور المسالمة .

والقصة التى بين أيدينا الآن أراد الكاتب من خلالها أن يضع تصوراً عاماً عن الحروب التى تدور رحاها الآن هنا وهناك ، وأن يداعب العقول والقلوب حتى يستفرغ ما فيها من مرارة وحسرة ، لعله يصل إلى حقيقة ما يحدث الآن ، هل هو صراع الأسُود من أجل صالح الغابة الكبيرة التى نعيش بداخل أسوارها ؟ أم هو صراع الثعالب مع الدجاج ؟ وأيا كانت الإجابة ، فنحن نتفق فى النهاية على أنه الصراع الدامى ، ولكن كلنا نتساءل : لصالح من هذا الصراع ، هل هو لصالح

الأقوياء على حساب الضعفاء ، أم هو لصالح الاثنين معاً ؟

ولعل الحمامَ وهو بطلُ القصة وصل إلى كل هذه الحقائق ، والحمامُ لم يصل إلى هذه الحقائق إلا بعد أن جنح للسَّلْم ، ودعا إليه ، وضحَّى من أجله بالجهد ، والعرق ، والأرواح ، فلما أيس من البغاة الجبابرة ، اتخذ من نفسه طيراً أبابيل ، وراح يرمى الظالمين بالحجر تلو الحجر .

عزيزى القارئ داخل كلٍّ منَّا غُصة ، وسأم ، وملالة مما ترى أعيننا عبر الشاشات ، ومما تحمله قلوبنا من أحمال تنوء بحملها الجبال والجمال ، لعل القصة تنزل برداً وسلامًا على القلوب التى أراها شفيفة ، وكيف لا تكون كذلك وهى قلوب أبناء الوطن الذى فيه ولَدِى ، وبيتى ، وقبرى .

حفنى مصطفى

السُّعـــار

انبلج نورُ الصبح ، وحلَّقت الحمامةُ " أشرقت " فى الفضاء الرحيب بمفردها كعادتها اليومية ، تلهو وتلعب ، وتعلو وتهبط ، وعلامات الفرح والسرور تبدو على وجهها الصغير .

وبينا هى على هذه الحال ، والسعادة من حولها تنشر تارة شذاها ، وتارة أخرى تفرد جناحيها وكأنها البساط الرحيب .. سمعت الحمامة دَوِىَّ القنابل والصواريخ ، تعقبه السحابة السوداء ، ومن بعدهم يأتى عويل رياَح الدمار ، وصراخ الأبرياء الذين ما زالت عيونهم تتفتح لنسيم الحياة .

نزلت أشرقت مسرعة فزعة من عليائها ، وحطت على شجيرة ، وبين الأوراق والأغصان توارت الحمامة ، والفزع ما زال يتملكها ، والخوف يعتصر قلبها على تلك البنايات التى حطمتها قنابل الشؤم ، وصواريخ الندامة ، وعلى هذه الأحلام الطفلة والأحلام الشابة التى عصفت بهما القوة المعصوبة العينين ، وعلى تلك الفرحة التى وُئدت وهى ما زالت تخطو أولى خطواتها فى الحياة .

سقط الدمع الدفاق من عينى أشرقت حين نظرت حولها فلم تجد الأشجار الباسقات التى ينعم بجمالها وسخائها الطير فى النهار ، ويذكر محاسنها ، وحسنها ، وظلها الوارف الإنسان فى الصباح والمساء .. لم تجد الحمامة إلا تلك الشُجَيِّرة اليتيمة التى فقدت منذ قليل عمتها وخالتها ، وبالأمس فقدت أبويها وشقيقيها ، وأصبحت اليوم وحيدة فى جوّ ملبد بالغيوم التى تتغبش فى عينيها ، وتحجب الهواء عن رئتيها الصغيرتين ، فصارت المسكينة لا تستطيع أن تميز بين الرياح الصديقة التى دأبت أن تلاطفها وتُداعبها فى الشروق - وقبل قدوم المساء ، حيث تعلو هامتها ، وينمو جسدها اليوم تلو الآخر - وبين الريح الغضوب العاتية التى تقتلع كل شئ فى طريقها ، حتى وإن كان صغيراً يتعثر ، أو شيخًا يئن من مرضه لأنها عمياء ، بلهاء مغيبة العقل .

انتصف النهار ، ولم تَعُد الحمامة أشرقت إلى ذويها ، فدب القلق بين الأهل والأصدقاء على مصير الحمامة الشابة التى دأبت على الخروج بمفردها .

ساد بين الجميع الخوف ، وصار البعض ينظر إلى البعض الآخر ، والدهشة من شدتها كأنها قد حُفرت فى الوجوه ، والحزن بات يعتصر القلوب .. ولو أنك اقتربت آنذاك من مجتمع الحمام وسألت أحد أفراده فقلت : فيمَ كل هذا الحزن ، وأنتم لم تقفوا بعد على خبر ابنتكم الحمامة ؛ لأنكم ما زلتم وقوفًا فى أماكنكم ؟ ساعتئذيأتيك الرد فى سرعة ، وبلا تعقل ليقول لك : إننا لا نعرف أهى حية لنرتجيها ، أم ابتلعتها البرية فى جوفها فنرثيها ؟

فلما يصيبك الامتعاض مما سمعت أذناك من كلمات هى أشبه باللغو ؛ لأنها تجردت وخلت من السعى الدؤوب الذى حتمًا ما يجعل مخلوقات الله تصل إلى ما تتمناه وتريده .

وعندما تُدير ظهرك ، وتبدأ فى التحرك بعيدًا عن مجتمع الحمام ، يستوقفك هذا الهمس الدائر حولك ، والذى لا تكاد تفقه منه لا القليل ، ولا الكثير ، بعدها تشاهد الأجنحة الشابة تدفع ، بل تضرب الهواء بعنف ، وتحلق فى الفضاء ، وقت ذلك يصل إلى عقلك المعنى الذى غاب عنك منذ قليل وهو : " كم هو الضنى غالٍ " كيف تعرف عيوننا طعم النوم ، والأبناء عن الديار بعيدون " ؟ .

حلق سربُ الحمام الشاب فى الفضاء ، وسَرعان ما أخذ كل أفراده يتمتمون بالدعاء لرب الطير ، ورب كل شئ أن يعثروا على الصديقة الحمامة " أشرقت " شفيفة النفس ، رقيقة القلب .

صارت عيون الحمام تتلفت فى كل مكان لعلها تشاهد الحمامة الضالة ، فتقر العيون لرؤيتها ، وتطمئن القلوب ، وتسدل العقول أهدابها .. فلما مرت الدقائق بطيئة وكأنها الدهور ، ولعب الشيطان بعقول الحمام ، انتهز اليأس

الفرصة وحاول الاقتراب ليسكن بداخل صدور الضعفاء من الحمام .

هنا تنبه قائد السرب إلى حقيقةٍ ، سَرعان ما طرحها على أسماع أفراد السرب فقال : يا معشر الحمام ، علينا أن نبطئ فى الطيران ، وإذا رغبنا فى أن تتضح الرؤية أمام أعيننا أكثر ، فعلينا أن ننزل من عليائنا ، ونطير على ارتفاع منخفض ، فنحن لسنا كطائر النسر ، أو العقاب ، نستطيع الإبصار من ارتفاعات شاهقة . . يا معشر الطير : رحم الله مخلوقاته التى تعرف قدْرَها .

لم يتقاعس سربُ الحمام عن البحث قدر لحظة ، بل ظل أفراده يطوون الأحياء ، والقرى والنجوع . . وبينا هم على مقربةٍ من الشُجيرة اليتيمة ، رأتهم الحمامة " أشرقت " ، فهللت لقدومهم وفرحت ، وأدركت من فورها ، أنهم جاءوا للبحث عنها ، لذلك لم تركن " أشرقت " للراحة ولا للتفكير أكثر من ذلك ، بل سَرعان ما طارت تاركة الشجيرة ، تذرف الدمع على الأحباب ، لتلحق هى بالسرب .

فى العودة اقترب أفراد السرب من " أشرقت " ، وفى حميمة ولطف سألوها عن سبب تأخيرها ، إلا أنهم رأوا دموعها تسبق كلماتها التى احتبست بداخل صدرها الذى راح يعلو ويهبط من شدة الحزن .

رق الجميع لحال الحمامة الصديقة ، وأشاروا عليها بالتوقف عن الحديث . . إلا أن قائد السرب وهو شقيق " أشرقت " ، نادى : يا شباب الحمام ، فلما رأى العيون قد اتسعت حدقاتها ، والرقاب قد تطاولت قال : " أرى أن نرجئ سماعنا لأشرقت إلى الغد " .

أومأ الحمام بالموافقة على طلب قائد السرب ، إلا أن وجوه الحمام اعتلتها الدهشة حين قال قائد السرب مرة أخرى : " ليتكم يا إخوان توافقوننى الرأى على أن يكون سامرنا هذه المرة فى الليل ، وليس فى النهار كما تعودنا منذ أن تفتحت أعيننا على الحياة " .

اهتزت الأجنحة ، واصطدمت الأجسام بالأجسام ، واختل توازنها ، وارتبك النظام ، وعمت الفوضى الصفوف ، وكأن كلمات قائد السرب بدلاً من أن تنزل برداً وسلاماً على القلوب ، صارت هى الخمر التى خامرت العقول وأخرجتها عن وقارها التى كانت تعيشُه منذ قليل .

بعد دقائق ، أو تكاد ، عاد النظام كما كان ، إلا أن الألسنة باتت فى الأفواه على أهبة الاستعداد للانطلاق .. وكان أول لسان ينطق ، بل يُطلق سهام الحق هو لسان « عمرى » فتى الحمام الذى قال فى حدةٍ : يا " إياد " أنت قائدنا فى رحلة البحث عن أشرقت فقط ، عليك أن تأمرنا ، وعلينا طاعتك إلى أن نصل جميعًا إلى أعشاشنا سالمين ، وأنت من قبل ذلك الصديق المخلص .

ولكن عندما تستغل حُبنا لك وتطلب منا أن نخالف ناموس الطير ، فنقبل أن يكون سامرنا فى الليل بدلاً من النهار ، وكلنا يعلم أن الليل خلق للإخلاد إلى الراحة بعد عناء النهار ، وأما النهار شقيق الليل فخلق للسعى الدؤوب من أجل رحلة البحث عن القوت .. أم حسبت يا بن الحمام أننا أصبحنا بين عشية وضحاها بشراً ، علينا أن نسلك مسلكهم فى السهر حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى ، والاستيقاظ والشمس فى رابعة النهار " ؟ .

توقفَ عمرى عن الحديث قليلاً ، ثم قال مرة أخرى : يا إياد الصديق ، أوَ تعلم أن السهر فى الليل يتطلب منا أن نتناول وجبة إضافية ، يُسميها بنو البشر : وجبة عشاء ، وأن الحمام - بل جميع الطيور - لا يعلمون عن هذه الوجبة شيئًا .. أتدرى لماذا ؟

فلما قال له إياد : اللهم لا أعلم ، قال عمرى : لأن حواصلها لم تألفها من قبل ، بل يعرفون وجبتى الإفطار والغداء .. ولو أننا قمنا فحولنا السامر من الصباح إلى المساء ، لتطلب الأمر منا حينئذٍ تخزين الطعام ، تمامًا كما يفعل صاحبنا الإنسان الذى يأكل فى نهمٍ وشراهة غير عابئ ببطنه وبصحته .. أم أنك

تريد أيها الصديق إياد ، أن نتخلى عما قيل في شأننا وهو الحق : " تغدُو خماصًا وتروح بطانًا " ؟ .

بدت علامات الخجل تعلو وجه إياد القائد الذى حاول تبرير موقفه ، فلما هم بالكلام قاطعته إحدى الحمامات الرشيدات وتدعى " بسنت " قائلة في رقة وعذوبة : " ويح إياد ابن الحمام ! أيرضى أن أقوم فأسال ذات يومٍ عن أشرقت ، أو عن أية حمامة أخرى ، وقد انتصف النهار ، فتأتينني الإجابة : أنهما ما زالتا نائمتين لأنهما سهرتا بالأمس في السامر حتى ساعة متأخرة ؟

وما أدرانا لعلها تصبح بعد ذلك سُنة لا نستطيع البتة أن نوقف آثارها وحرورها وخطرها ، ونحن في بداية الأمر غضضنا الطرف عنها ، ثم نطلب بعد أن تكون " الفأس قد وقع في الرأس " أن نبحث عن حل للمشكلة التى صنعتها عقولنا وليست أيدينا ، واستحكمت حلقاتها .. حين ذلك يجتمع علماء وجهابذة المشاكل والكوارث في مجتمع الحمام لإيجاد الحلول للمشكلة التى صارت تتفاقم أركانها اليوم تلو الآخر فإذا هم يهتفون ، أنهم وجدوا الحلول ، وما هى بالحلول ، بل هى المسكنات التى لا تمحو المشكلة ، بل قد تزيد مع الأيام من حدتها ، وإن أصابت فإن ذلك يكون على حساب ظهور مشكلة أخرى لم تكن في الحسبان " .

سمع الحمام صوت قهقهة عالية بين الصفوف ، ساعتئذ اعتلى البشر الوجوه وأدرك الجميع أن ثمة مُزحة سوف تنطلق من بين شفتى الصديق " ساهر " فلما ساد الصمت بين أفراد السرب قال ساهر : " أُشهدكم يا أولاد الحمام أننى أوافق على أن يكون سامرنا في الليل ، وأرفض بشدة أن يكون أثناء النهار " .

حدث هرج ومرج بين الحمام من أثر كلمات ساهر ، إلا أن أحد أفراد السرب عاجله بالسؤال فقال له في تهكم : " يا حكيم الحمام ، وعقله المدبر في الأزمات أفصح لنا عن رأيك ، بل عن حجتك الغالية " ؟ .

نظر ساهر إلى الحمام وعلامات الجدية ترتسم على وجهه ، وراح يقول متسائلاً : " أتدرون ما هو أسمى الذى أعيش به بينكم " ؟ .

قالوا : " نعم ، هو ساهر " .

قال : وكيف بساهر أن ينام بمجرد أن يُسدل الليل أستاره ، وكيف ببدرى أن يصحو من نومه بعد بزوغ الشمس ؟ أوَ ليس المطلوب من كل واحد منا يا رفاق أن يلتزم باسمه " ؟ .

تلاشى الحزن من الوجوه ، بل ذهب أدراج الرياح ، وتبدل حال الحمام إلى السرور ، خاصة وأن ساهر ما زال يمزح ويتهكم فى القول ، فيقول والحمام يُصغى إليه فى شغفٍ : " وأتمنى يا رفاق الفضاء أن يخرج من مجتمع الحمام مخترعٌ يخترع لنا صندوقًا صغيراً يحول ليلنا إلى نهار ، ونهارنا إلى ليل ؛ لأننا سوف ننفق وقتنا كله بلا تمييز فى الجلوس بجواره .. فلما يتعاقب الليل والنهار ، وتمر السنون يخرج من بيننا من يزعم ، بل يؤكد أن مشى الطيور على الأرض يُطيل من أعمارها ، وأنه اكتشف أن السبب المباشر وراء المرض الذى تفشى فى مجتمع الحمام ، هو رفضها بشدة السير على الأرض ، وإصرارها على التحليق فى الفضاء والذى أثبت العلم أنه مضيعة للوقت ، وإرهاقاً للصحة والعضلات ، ومدعاة للمرض .

وأخشى ما أخشاه حينئذ أن يصدق أبناء الوطن من الحمام هذا الزعم الباطل تحت شعار - أن العلم يأتى كل يوم بجديد - حينذاك نودع الطيران ، ونرضى بالسير على الأرض .. وسَرعان ما نصحو على الحقيقة المفجعة وهى : أننا معشر الحمام أصبحنا مثل الأصدقاء الكلاب ، والقطط ، الذين يلاقون حتفهم كل يوم تحت عجلات هؤلاء المتهورين من بنى البشر " .

لما شاهد ساهر أن العيون قد دمعت ، نظر إلى الحمام وقال ضاحكًا : " ويحكم ، ما الذى أراه منكم الآن " ؟ .

في عجلةٍ يرد عليه البعض قائلين : ويلك يا ساهر ، ماذا فعلت بنا اليوم على غير عادتك ؟

ابتسم ساهر وقال : " الحديث يحكم يا رفاق " .

وطال حديث العودة - بل بالأحرى سامر العودة - بين أفراد سرب الحمام إلى أن أصبحوا على مشارف الوطن ، فوجدوا الجميع فى انتظارهم ، وعلامات الفرحة تبدو على وجوه الكبار والصغار ، وهم يرون أشرقت قادمة ، وهى تحتمى بضلوع وأجنحة الحمام .

* * * * *

ما أجمل الصراحة مع النفس

كانت الشمس إذ ذاك تقترب أن تتوارى وراء الشفق ، وكأنها ملَت متاعب البشر ، وكرهت ظلمهم ، والحمام الشابَ يلتف فى سامره حول الحمامة أشرقت التى استدارت برأسها لتخفى دمعة محرقة استقطرتها الشفقة من أجفانها وهى تقول : " رأيت ينبوع الماء العذب محاطًا بذوات المخلب والناب " .

ارتعشت (أشرقت) من شدة الألم الذى حل بها ، كمن أدرك سرًا هائلاً ، إلا أنها سرعان ما قالت بصوت المنازع القانط : " رأيت القنابل والصواريخ فاقدة البصر والبصيرة يُطلقها أناس لهم ملامح البشر ، أما أفعالهم فليست بأفعال بشر .. فإذا بالبنايات تسقط من عليائها ، وإذا بالأحلام المتوثبة للانطلاق فى مناكب الأرض تخمد أنفاسها إلى الأبد .

وإذا بى أقيم شطراً كبيراً من النهار على الشجيرة اليتيمة ، ولو أنى أقمت فى ذلك اليوم على أنياب الأفاعى لكان أهون علىَّ وأروح مما رأيته فى هذا اليوم العابس .

وظننت بعقلى الصغير أن الأمر قد توقف عند هذا الحد ، إلا أننى رأيته يتصاعد ، حتى رأيت هذا الطفل زائغ العينين ، شارد الذهن ينوح مع الغصون على أمه التى كانت منذ قليل نغمة شجية بين شفتى الحياة ، فأصبحت اليوم سرًا صامتاً فى صدر الأرض ، حينذاك صرخت من أعماقى قائلة : عفاءً على هذا الزمان ، فإنه زمان عقوق ، لا زمان حقوق " .

وقفت الحمامة المتحدثة عن الكلام قليلاً ، وكأنها تسترجع الشريط المأساوى إلا أنها تنهدت ، فخرج من فيها زفرة ألم ، بعدها قالت : " حينذاك أدركت أيها الرفاق أن صراخ البائسين المتصاعد من جوانحهم ، بل من جوانب ظلمة النفس للنفس لا يسمعه الجالسون على العروش ، ونواح المحزونين لا تعيه أذان الببغاوات أرباب الكلام .

ويبدو أن الغفلة والغباوة قد نسجت نسيجاً حول عقلى ، فحجبتنى عن التفكير ، وحجبت التفكير عن الوصول لعقلى ، حينذاك توهمت أن جُدر السلام التى يتحدثون عنها فى الليل والنار ، ويتشدق بها أعداء السلام - بل أعداء أنفسهم - فولاذية ، لا تحطمها رصاصات عصابات الظلام ، وربائب الفكر الضال وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا ، ولم أعرف أن جُدر السلام التى يتحدثون عنها هشة ، عمياء ، لا تستطيع التمييز بين شيخ أعمى أو طفل لا يزال يدرج على عتبات الحياة ، أتدرون لماذا شباب الحمام " ؟ .

فلما سمعت أشرقت شباب الحمام يهتف قائلاً " اللهم لا ندرى " ؟ قالت : لأن عصابات الظلام ، حلفاء الشياطين المردة ، كأفاعى البحر التى تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة ، وتمتص دماءها بأفواه عديدة . . لذلك أدعوكم يا أبناء الحمام اليوم وليس الغد أن يُدلى كل منا بدلوه لترميم جدران السلام ، وانتشار أزاهيره بين ربوع الدنيا ، قبل أن تتهاوى أركانه ، خاصة ونحن رمز السلام ، وإيانا والتخاذل عن هذا الهدف الأسمى . . وقت ذلك يشير إلينا الجميع قائلين : تبًا للحمام رمز السلام ، استسلموا استسلام الأعمى إلى قائده الأعمى " .

لمعت عيون الحمام الشاب من كلمات الحمامة أشرقت ، وانبعثت منها نظرات الحزن الموجعة ، التى تتكلم بالسكينة عن انسحاق القلوب ، وضيق وظلمة الصدور ، وانعقدت الألسنة لمدة دقائق ، أو تكاد ، إلا أن الصدور الشابة هاجت لهول ما بداخلها من نار متأججة ، آنذاك انطلقت الألسن تقول ما تخبئه الصدور ، فكان أول المتحدثين ذكر الحمام " حازم " الذى قال فى حدة : " قد يخطئ البعض عندما يزعمون أننا معشر الحمام رمز السلام فى معزل عن هذا الخراب والدمار اللذين تُحدثهما الحروب العنترية بداعٍ وبغير داع ، والحقيقة أننا أصبحنا الحصاد الأول لتلك الغباوة التى هى أشد سواداً من بشرة الزنوج " .

يتوقف حازم عن الكلام ، وكأنه يستفرغ ما فى قلبه من هم ، وسرعان ما

يقول مرة أخرى والحزن بادياً على وجهه الصبوح : " إننى لأتعجب من أمر الصديق الإنسان الذى كثيراً ما يتحدث عن شمس الحرية ، وهو لا يدرى أنها مقرونة بالسلام الظاهرى ، وشقيقة السلام الداخلى الذى يشعر به الإنسان مع نفسه ، ولكن ماذا نقول ، وهذا عهدنا بالصديق الإنسان ، الذى دائماً ما يخلط بين النور الحقيقى - وهو ذلك النور الذى ينبثق من داخل الإنسان - وهذا النور الذى تسكبه الشمس على جميع الخلائق " .

تقاطع الحمامة " زبيدة " حازم ، وفى رقة وعذوبة متناهيتين ، وبصوت رقراق أشبه بخرير الماء يُداعب الأغصان ، تسأل زبيدة حازم فتقول : " ويح حازم الصديق ، والصديق حازم ، أوَ تعنى بكلماتك هذه ، أنه بمقدورنا نحن الحمام أن نفعل ما عجز عن صنعه الإنسان على مدار التاريخ ؟ وأننا وإن حملن مشاعل السلام ، وأغصان الزيتون نستطيع أن نبنى لبنة فى جدار السلام ، لتتعاقب اللبنات بعد ذلك " .

فى هدوءٍ وعقل يعقب حازم على سؤال الحمامة السائلة بقوله : " نعم زبيدة هذا ما نقصده ونريده " . . فلما تعاوده السؤال وتقول : كيف ؟ يقول : " لا أدرى الآن ، ولا أحسب أن أحدنا يدرى ؛ لهذا كان وجودنا اليوم فى سامرنا هذا ولكن علينا أن نجتهد ، وأن نتخذ من حكمة الإنسان التى تقول :

قد يفشل المحظوظون

وقد يفشل المتازون

وقد يفشل الأذكياء

ولكن لا يفشل المجتهدون

هدفًا لنا ، وليس شعاراً نتشدق به ، إن كنا نريد بالفعل أن يَعُم السلام أرجاء المعمورة " .

عم السكون المكان ، وراحت العيون تتحرك سريعة ، وهى تخترق الصفوف وكأنها تبحث عن شئ ، وما أن وقعت العيون على الحمامة " نجيبة " التى تعلو رأسها خصلة ، تجعلها تتراءى أمام الناظرين إليها وكأنها ترتدى الخمار ، وما هو بخمار ، بل هى الزينة التى يضيفها العقل على صاحبه .. أخذت العيون لا تبارح مُحيا نجيبة ، عند ذلك أدركت الحمامة المقصودة ، أن الحمام يريد منها أن تُدلى بدلوها فى هذا السامر ، لعل رأيها يكون السراج الذى يضئ الطريق أمام العقول التواقة إلى البحث عن النور لتبدد به الظلام .

تقدمت الحمامة نجيبة عدة خطوات ، فلما أصبحت ظهرانى الحمام وقفت وقالت وهى تنظر إلى الأفق البعيد : " انظروا حولكم ، ودعوا النظر إلى مواضع أقدامكم ، فلئن فعلتم ، فسوف ترون الأسلحة تتوهج ، والقتلى يتساقطون ، والمنايا تتواثب .. توقفت الحمامة نجيبة عن الحديث ، وراحت تنظر إلى الأفق البعيد مرة أخرى .

حاولت إحدى الحمامات وتُدعى " سلوى " أن تقاطع الحمامة نجيبة ، أو لعلها أرادت أن تسفه من رأيها ، عندما رأت الحمام يلتف حولها ، فلما أخذت تنظر إليها ، وجدت فى عينيها نوراً غريباً يخرق الصدر ويحير العقل ، ويحيط بالجوارح ، حين ذلك تراجعت عما كان يجيش بصدرها ، وفى هدوءٍ مصطنع سألت نجيبة فقالت لها : " وماذا بعد النظر حولنا يا أختاه " ؟ .

قالت نجيبةُ معقبةً بلسان صدوق ، وقلب عقول : " إنما يجئ النظر فيما حولنا لمعرفة ما نوع الحرب التى تدور رحاها بين هؤلاء البشر ، وهؤلاء ؟

تعتلى الدهشة وجه الحمامة سلوى ، التى تعاجل نجيبة بالسؤال " قائلة : وهل الحرب أنواع ؟ وإن كانت كما تقولين ، فما دخل هذا بالسلام الذى صار شاغلنا الوحيد فى سامرنا " ؟ .

تتنهد نجيبة ، ثم تبتسم ابتسامة هى أشبه بابتسامة الشفق الغارب ، بعدها

تنظر إلى السائلة وتقول : يا بنت العم إذا ما دعتك الضرورة أن تقومى بالصلح بين متخاصمين ، فما هو الشئ الذى عليك أنْ تعرفيه أولاً ؟ .

سلوى : " علىَّ أن أعرف سبب الخصام ، وإلا فسوف أخفق فى الصلح بينهما .

نجيبة : " وماذا تفعلين إن كنت تواجهين امتحانًا فى الغد " ؟

سلوى : اجتهد ، وأقلب فى أوراق العلم تارة ، وتارة أخرى أقلب فى أوراق العقل ، بل أقدح زناد الفكر ، وإلا عانقنى الفشل فى الغد وعانقته " .

بعين طافحة بالدهشة تعقب نجيبة قائلة : " لعلك الآن يا سلوى قد وُفِقْت وفطنْت إلى ما أقصده . . فلما احمر وجه سلوى من شدة الخجل الذى أصابها قالت نجيبة : " أما عن إجابة ما خفى على عقلك فهمه ، فهو أنَ هناك حرب الأقوياء ، وإننى أزعم أن هذه النوعية من الحروب قد طويت صفحاتها منذ عشرات السنين ، وإن قلنا إنها تحدث الآن ، فعلينا أن نسلم بأنها مثل الفقاعة التى تنتفش فوق سطح الماء ، إلا أنها سرعان ما تزول ، وزوالها يرتبط ارتباطًا وثيقًا بتعادل القوتين، وبتعادل مصالحهما ، أو تقاربهما وهو أضعف الإيمان .

أما الحرب الثانية ، فهى (حرب الأقوياء ضد الضعفاء) وهى حرب مختلفة الموازين ، وللأسف فإن هذه النوعية من الحروب هى التى سادت الدنيا منذ بداية التاريخ حتى الآن .

ولكن إحقاقًا للحق ، علينا أن نستثنى من التاريخ حقبة (النور المحمدى) الذى أضاء الدنيا وما حولها بنور الحق ، ولأنهم فتية أمنوا بربهم ورسولهم ، وتوكلوا على الله حق التوكل ، عرفوا الحق بالحق ، وعرفوا أن للحق نوراً ، لذلك لم ييتئسوا من قلتهم قدر لحظة ، ولم يتهيبوا من كثرة عدد عدوهم ، لذلك كانت قلتهم كثرة وقوة ونصراً .

وعلينا أيضًا أن نستثنى ـ فترة تحرير الأوطان ـ بعد الوعد الجائر الذى

استقطع الأرض الطهور ، وحطم النفوس ، وأطاح بالرقاب ، وقطع الأوصال .. وعلينا أن نعترف : أنه بالرغم من دوران الحياة ، وادعاء الإنسان الكاذب ، أنه اخترع لنفسه ولذويه ما ينير العقل قبل الطريق .. إلا أننا نرى هذه الأيام أن حرب الأقوياء للإطاحة بالضعفاء ، قد أطلت برأسها مرة أخرى ، وبطريقة سافرة ، خاصة عندما نظر الأقوياء ، فإذا بجيوبهم خاوية على عروشها ، ولما كان الأقوياء من عبدة الذهب الأصفر ، وشقيقة الأسود ، رأيناهم بين الفينة والفينة ، يتحولون إلى سباع ضارية ، وكلاب عاوية ، وعقارب لساعة ، وأفاعى نهاشة " .

أما الحرب الثالثة يا حمام السلام فهى (حرب الجُهلاء) فقراء القلوب ، أغبياء العقول .. وقد يسألنى أحدكم فيقول " بين من تدور رحاها " ؟ فأقول : بين شعبين فقيرين ، على سبب أهون من جناح بعوضة ، لو بحثت ، وفتشت عن خبايا هذا السبب لوجدته لا يزيد عن حكاية (داحس والغبراء) التى دارت رحاها قرابة الأربعين عامًا بسبب ناقة ، لُوْ عرفت قصتها ، لضحكت من هزل الإنسان ، الذى يترك كبار الأمور ، ويبحث عن صغارها .

وقد تدور رحاها بين أبناء الشعب الواحد ، على من أحق بالزعامة ، أهو زيد أو عمرو ؟ وللأسف فإنه فى سبيل ذلك تحصد الرقاب ، وتتهاوى الأجسام مُضَرَّجَةً بدماء الجهل والغباوة " .

يتوقف ذكر الحمام المتحدث قليلاً ، إلا أنه يقول مرة أخرى : " أيها الرفاق ، ولأننا نعيش فى مجتمع الحمام ، أصبحنا لا نرى إلا ما وقف حجر عثرة فى سبيل سيرنا ، ولا نسمع سوى صوت يخيفنا .. كنت لا أود أن أطيل اليوم فى حديثى على غير عادتى ، إلا أننى تعمدت ذلك حتى يفطن كل منا إلى مضمون الرسالة التى يريد أن يوجهها إلى هؤلاء البشر ، وقتئذ يكون فى تحركنا البركة والفائدة .. فمن يدرى لعلنا رغم أجسادنا الصغيرة نستطيع أن نوقف غضب النفوس ، وانحراف العقول ، وزيغ القلوب ، فيقف تبعاً لذلك زئير أسلحة الموت هنا وهناك" .

تحرك " رشيد " وأخذ ينظر إلى الحمام ، حينذاك أدرك الجميع أن أمير الحمام الذى يتفوق عليهم بالعقل ، والحكمة ، والرأى السديد ، يريد أن يُدلى هو الآخر بدلوه فى هذا السامر ، بل فى هذا العُرس .. هتف الحمام ، وفى فرحةٍ قال الجميع : " هات ما عندك يا أمير ، يا بن الأمير " .

تنهد رشيد ، فخرجت من فيه زفرة ألم ، بعدها قال : " من هول ما نشاهد كل يوم ، فقد كَلَّ البصر ، وانعقد اللسان ، وجمد الخاطر ، وذهب البيان ، وملك الوسواس ، وغلب اليأس جميع الناس ، ولكن إن استسلمنا لما يحدث ، وراحت القلوب فغلقت أبوابها على اليأس الذى يزيد ويفيض بداخلها ، وتوقفت العقول عن التفكير السليم ، تكون الطامة الكبرى " .

فى لهفةٍ تسأل الحمامة "بسنت" رشيد فتقول : " إذًا ما هو العمل من وجهة نظرك يا أمير الحمام ، حتى يَعُم السلام أرجاء المعمورة " ؟ .

فى هدوءٍ وثقة رشيد معقبًا : " لا أحسب أن يكون هناك سلامٌ إلا إذا تسلح الضعفاء بالعلم والثقافة .. فإنهما يا بنى الحمام القوة الحقيقة التى تكبح جماح الظلم ، وتُنيخُ ناقة السلام ، وإن البعد عنهما هو السراب الذى يعيشه الضعفاء الآن " .

رأى رشيد أن العيون قد اتسعت ، والرقاب قد اشرأبت ، وأن الدهشة قد اعتلت الوجوه فقال موضحًا : " يا حمام السلام ، علينا أن نتيقن أن المال لا يصنع القوة كما يتوهم البعض فى مجتمع الحمام ، ومن كان فى شكٍ من ذلك ، فلينظر حوله ، فإن نظر حوله ، ولم تر عيناه ، ولم يع عقله ، فعليه أن يعالج عينيه من الرمد الذى أصابهما وهو لا يدرى ، وعليه أن يفرك عقله لعله يفهم هذه المرة .

وحتى نكون أصحاب عدل مع أنفسنا علينا أن نقول : " إن العلم يصنع المال والسلاح ، وأن السلاح يصنع القوة ، والقوة تصنع السلطان ، ولا سلطان إلا برجال ، ولا رجال إلا بمال ، ولا مال إلا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل " .

يتوقف رشيد عن الكلام قليلاً ، وكأنه يلتقط أنفاسه ، بعدها يقول مرة أخرى : " يا أبناء العم والخالة ، السلام وإن كان مطلب كل المجتمعات (الحمام وغيره) ، إلا أننى أجزم ، بل أشهدكم : أن مجتمعات الحمام المسالمة لما لها من فتور وضعف لهى فى أشد الحاجة إلى السلام ، وإنه لن يتحقق ، بل لن نشم ريحه العطرة ، إلا عندما يستقيم الميزان المقلوب ، فيعود العلماء ، والمفكرون ، والأدباء ، والكتاب ، والأفذاذ إلى صفوفهم التى خرجوا منها ، وتعود الطفرة العشوائية التى ظهرت مع ظهور التلوث البيئى إلى صفوفها الحقيقة فى الخلف .

وإن كنتم أبناء الحمام فى شكٍ ، فعليكم أن تسألوا هؤلاء الأقوياء الذين يتباهون عليكم بقوتهم ، وعلمهم ، وتكنولوجياتهم ،. من أين جاءوا بقوتهم وعلمهم ، فإن صدقوكم القول قالوا : إنهم جاءوا بها من مشاعل العلم والفكر التى نطقت بها عقول وأفواه الصفوة من أبناء الشعب " .

ولا أريد أن أقف عند هذا الأمر فقط ، بل أقول بصدق الصادقين : إن السلام لا ، ولن يتحقق بتلك الأقوال التى تردد ، والأغنيات التى تنشد فى مجتمع الحمام ، فى الليل والنهار ، ولكن يتحقق بالعمل الذى يُجدى ، وبالعطاء الذى يُثرى .

وإننى لأطلب منكم ، بل ألح فى طلبى قبل أن ننصرف لأننى أشاهد الليل يفرد ثوبه ليطرحه على جسد النهار أن تنظروا إلى السماء ، وأن تُحبّوها ، فعلى قدر حبكم لها تكون سعادتكم وقوتكم وسلامتكم .. والآن هيا لنعرض ما تحدثنا به اليوم من حديث القلب والعقل مع أبائنا ، لنضع معهم النقط على الحروف فيما أصبح شاغلنا الوحيد الآن " .

وما أن أتم رشيد أمير الحمام كلامه ، إلا وفرد جناحيه للعودة إلى مجتمع الحمام ، وإذا بالحمام كله يتبع رشيد ، والعقول فى الرؤوس بدأت تتحرك ، وتفكر فيما غفلت عنه البارحة .

من ليس له كبير فليشتر له كبيرًا

انتشر خبر تبنى الحمام الشاب الدعوة إلى إفشاء السلام ، وعدم قبولهم أن يكونوا رمزاً للسلام اسمًا ، وليس عملاً - أسرع من البرق - فى مجتمع الحمام ، بل وفى مجتمعات الطيور الأخرى المحبة للسلام ، وتلك المجتمعات التى تعانى من ويلات الحرب ، وتدفع ثمنها من أرواح أبنائها .

والغريب ، بل الذى يثير الإعجاب ، أنه لم توجد حمامةٌ واحدة فى مجتمع الحمام ، أو طائرٌ فى مجتمعات الطيور الأخرى ، رفض ، أو لمح مجرد تلميحٍ أنه يرفض الدعوة إلى السلام التى يتبناها شباب الحمام ، ولعل السبب يرجع فى المقام الأول ، إلى أن الحمام لا يطمع فى مالٍ يغترف منه الحفنة والحفنتين ، ولا يطمح إلى مجدٍ وشهرة يُحسبان لغيره ، ولا يُحسبان له ، ولا تعرف نفوس الحمام الخيانة فهم يعشقون تراب وطنهم ، وقشه وأغصانه .

بل يطمع الحمام فيما هو أكبر من هذا وذاك ، وهو أن يذكروا كل يوم ، ويمجدوا فى كل مناسبة ، عندما يضيئون الشموع لمواطنيهم ، ويبصرونهم بموضع خطاهم ، ويغرسون فى نفوسهم مبادئ الحرية ، والعزة ، والكرامة ، والسلام .

وتحدد يوم اجتماع شباب الحمام مع الشيوخ والكهول ؛ لعرض الموضوع من جميع جوانبه ، قبل القيام بتنفيذ أية مهمة .. وحضرت وفود الحمام المحبة للسلام من كل قرية ، ونجع ، وكفر ؛ لتشارك فى هذا الاجتماع الشفيف ، الذى يحدد مصائرها ، ويقلل من عدد ضحاياها .

مع شروق شمس اليوم المحدد اصطفت جموع الحمام ، ووفود الطيور الأخرى على غصون الشجرة الكبيرة التى خصصها الحمام لمثل تلك الاجتماعات .

وبظهور شيوخ وكهول الحمام بدأ الترحيب بوفود الطيور الصديقة ، ثم بدأ

الحوار الحميم عندما أشار أحد شيوخ الحمام إلى رشيد وقال : " هات ما عندك يا أمير الحمام ، وإننى لأذكرك أننا فى مجتمع الحمام لا يختزن ، أو ينفرد أحدنا برأيه ، أو يحاول إخفاء بعض الكلمات التى ربما يكون فيها صالح مجتمع الحمام.

اعتدل رشيد فى وقفته وقال فى أدبٍ ، وبصوت خفيض : " يا أبانا طبول الحرب المَسْعُورة باتت تدق طبولها هنا وهناك ، ومع كل دقة تُحصد رقاب بريئة ، وتُخمد أنفاس كانت بالأمس تختال ، بل تتنافس مع الكروان ، والعندليب ، والعُصيفير ، ولأننا لسنا بمنآى عن سعيرها ، وفحيحها ، وحرورها ، ولسنا بالذين يرتضون على أنفسهم ، أن يكونوا رمزاً للسلام ، وبيننا وبينه جبال ، ووديان ، وبحار ، ومحيطات ، ولسنا كالطفل يُلبسونه بذلة الضابط الهمام ، وهو فى الحقيقة أشبه بالقشة تُداعبها الرياح .. لذلك عقدنا العزم على أن نمقت الحرب وأصحابها ، وأن نحمل بقوة المشاعل الحقيقية للسلام ، ونتحرك بها فى كل اتجاه لعل زئير الحرب يقف لتحَرُكنا اليوم ، أو غداً .

أراد شيخ الحمام أن يختبر العقول ، فما كان منه إلا أنْ سار عدة خطوات ، ثم وقف ونظر إلى الحمام وقال : " أى حرب ، وأى سلام تقصدون " ؟

حدث هرج ومرج فى صفوف الحمام الشاب ، وراح البعض ينظر إلى البعض الآخر فى دهشةٍ ، وانعقدت الألسنة للحظات ، وساد السكون ، إلا أن الحمامة سلوى قطعت هذا السكون عندما سألت الشيخ قائلة : " يا جد الحمام ، وهل توجد غيرها من حرب تعصف بالصغار فى لهيب البيداء ، وتحرم الذكر من الأنثى بالحياة ، أو بالموت ، وتهدم الأعشاش ، والبنايات على أحلامها وسكانها " ؟ .

تعلو الابتسامة على وجه شيخ الحمام ، الذى يتوقف عن الحديث لحظات ، وكأنه يستجمع قوى لسانه ، لكنه سرعان ما تنهد وقال : " يا جميلة الحمام ، لأن الحروب ليست صنعة الحمام ، ثم أشار إلى ذكور الحمام ، وإناثه وقال : وأنتم ، وأنتن لا تعرفون عنها شيئًا ، اللهم إلا تلك الحرب التى نسمع نعيقها ، ونعيبها

من حولنا في الليل والنهار . . ولأننا نغنى كل يوم نشيداً يحاكى مقدار الندب الذى يوجد بداخلنا عندما نشاهد ـ ابن آدم ـ حاملاً آلته الجهنمية الخفيفة ، أو راكبًا على معداته الثقيلة ، وسرعان ما يفتك بنا مع ما يفتك به من بشر وجماد ، وكيف لنا لا نندب ، والموت يتبعنا أينما حلقنا ، لذلك ارتسمت هذه الحرب فى عقولنا جميعاً ، عن دونها من الحروب الأخرى ، التى قد تكون أشد فتكًا على مرِّ السنين من تلك الحرب التى تعرفونها .

ولما كنتم لا تريدون إلا السير فى طريق السلام ، فعليكم أن تعرفوا قدرًا قليلاً عن أنواع الحروب الأخرى ، التى تحيك ثيابها من حولكم ، فلعلنا معشر الطيور نُدعى ذات يومٍ لنوقف لهيبها هى الأخرى ، حينذاك نستطيع أن نسبر أغوارها "

نظر شيخ الحمام إلى جموع الطير التواقة إلى المعرفة وقال : " هناك حربٌ تدور أحداثها كل يوم ، بل كل ساعة ، ليست فى مجتمع الحمام ، ولكن تشاهدونها جيداً فى مجتمع بنى البشر . . طرفاها الرجل ، والمرأة ، وعهدى بهذه الحرب أنها فى بعض حقب الزمان ترونها خاملة ، يخفت ضوؤها ونارها ، وفى حقب أخرى يزداد هديرها وأوجها إلى حد الذروة .

وقد يسألنى أحدكم فيقول : لماذا لا تحدث مثل هذه الحرب الباردة فى مجتمع الحمام ؟ فأقول : " لأن الذكر والأنثى فى مجتمع الحمام لا يطمع أحدهما فى أكثر من حقه الذى يعرفه جيداً ، ولا يسمع مطلقًا لهذا اللغو الذى يدور حوله حتى وإن اشتد غباره فوصل إلى عنان السماء . . ناهيكم على أن كلاً من الذكر والأنثى فى مجتمع الحمام يحترم دور الآخر ، ولا يفكر أحدهما بالمرة أن يستولى على حقوق الآخر ، والقاعدة تقول : إن وجد الاحترام بين طرفى الحياة ، وجد الحب والإخلاص ، وانعكس ضوؤه على الجدران ، وساكنى الجدران .

أما فى مجتمع بنى البشر ، فقد اختل الميزان ، فكثر اللغط ، فذهب لكثرته

الاحترام أدراج الرياح بين البعض ، وليس الكل ، فاختلطت لذلك الأدوار وداسُوا الحب بالنعال . . ولعلنى أزعم أنه عندما يختل الميزان فى أى مجتمع نتيجة لأحد الصراعات ، يكثر عند ذلك الانتهازيون الذين يرتدون ملابس القديسين ، وهم فى الحقيقة يعملون لصالح أنفسهم ، ولا يعملون لصالح الرجل ولا المرأة ، فتبًا لهم فى الدنيا والآخرة " .

تبدو علامات الحزن الشديد على وجه شيخ الحمام ، الذى يتوقف عن الحديث ، ولا يدرى أحد الحضور ، أوقف الشيخ امتعاضًا من الكلام فى هذا الموضوع ، أم أنه توقف ليلتقط أنفاسه ؟ إلا أن الجميع توجهت أنظارهم إلى الحمامة " هناء " التى راحت تسأل هى الأخرى شيخ الحمام فقالت : " ويحك أيها الشيخ الجليل ، وويح مجتمع الحمام ، أوَ المرأة الجميلة الرقيقة فى مجتمع الصديق الإنسان ، والتى تُعد نصف الحياة ، تناصب الرجل الحرب الباردة ، والعداء الخفى ؟ عجبًا لما تقوله أبانا الشيخ " .

أراد أحد كهول الحمام أن يوضح وجهة نظر شيخ الحمام فقال : " يا بنة الحمام جَدُّك الشيخ يتكلم بجدية ، وبصراحة مجتمع الحمام المتناهية ، وهو يعلم علم اليقين أن للمرأة فى مجتمع بنى البشر شأواً عظيماً فى حياة الرجل ، والدليل أنه ارتبط بها ارتباطاً وثيقًا ، ليس وليد اليوم ، أو الأمس ، بل هو الارتباط الأبدى الذى تمخضت عنه الجبال ، والروابى ، والوديان ، منذ أن خلق الله تعالى الأرض وجعلها مستقراً لآدم وحواء .

ولكنه يريد أن يلفت الأنظار إلى أن المرأة ، وهى الوجه المشرق للحياة ، إن أشرق مُحياها على إحدى الدور ، تراقصت الجدران من البشْر ، وخيمت السعادة ونسجت نسيجها ، وأصبح طعام القلوب والعقول المنَّ والسَلوى ، وإن قدر الإله لهذا المُحيا فتجهم ، تصدعت ، وتهدمت الجدران الفولاذية ، من نار السخط ، والغضب المنصبين على الجدران ، آنذاك يعرف الخوف طريقه إلى القلوب الآمنة ،

ويخرج نتاج طرفى الحياة يتخبطون فى سياجها ، وهم لا يلوون على شئ ، وتراهم يترنحون كالسكارى وما هم بالسكارى ، ولكنه أفول المرأة بعد طول شروق وابتسام .

وقد تعجبون يا أبناء الحمام ، إن قلت لكم : " إنه رغم هذا اللغط الكبير ، الذى قد يفقد الرجل والمرأة فى مجتمع البشر صوابهما ، إلا أن المرأة ما زالت تعشق الرجل ، والرجل ما زال يعشق المرأة ، وكلاهما يعتبر الآخر أمانهُ ومعْقله .. ولعلنى أزعم أن هذا إنذار موجه من كليهما إلى أرباب الكلام ، أن يكفوا عن هذا اللغط لأن الآذان صارت لا تطيقه ، والقلوب سئمت من طعمه ، الذى أضحى فى مرارة الحنظل ، بل أشد " .

صارت طيور الحمام ، والطيور الصديقة شغوفة لسماع إحدى أمهات الحمام وتُدعى " أفنان " والتى يكنون لها الحب ، والتقدير ، وهى تُدلى بدلوها فى هذا اليوم التاريخى ، الذى يتسابق فيه الكبير والصغير لكى يُسطر كل منهم رأيه بحروف من نور فى العقول التواقة لمعرفة الحقائق ، ومؤشرات العمل الإيجابى الذى ينقذ الحمام وأصدقاءه من سعير الحرب .

تتلفت الأنظار كلها إلى الحمامة الأم ، التى اعتلى وجهها السرور ، وأدركت منذ الوهلة الأولى أنها الدعوة لها للحديث .. حينئذ قالت : " دعونى أتحدث معكم الآن عن حرب الإنسان على نفسه .

شعرت أفنان الأم أن الدهشة ارتسمت على وجوه الحمام ، ووفود الطير ، بل ودار الهمس بينها ، عند ذلك فهمت لغة حوار الألسنة الخفيض ، وخبايا العقول فقالت مرة أخرى : " لئن يموت الإنسان بيد غيره ، فهو الشهيد ، ولئن يموت بيده هو ، فهذا يُعد الانتحار ، الذى لابد أن نقف عنده ، ونسأل أنفسنا : " متى يصالح الإنسان نفسه ، ومتى يتوقف عن حربها ، ومتى ينشر السلام بداخلها ؟

وقد يسألني أحدكم فيقول : " وبأي سلاح يحارب الإنسان نفسه ؟ فأقول : " بسلاح لا يُرى ، ولكنه فتاك ، إنه يا معشر الحمام سلاح المخدرات والمسكرات التي ابتليت به مجتمعات الصديق الإنسان ، حتى صار في نظر المبصرين هو الموت يبتاعه أعمى العقل ، وهو في نظر الخاصة ، الشر المستطير الذي يحسبه البعض الدمى التي يلهو بها ، وكيف تكون الدمى ، وأولها الجمرة المستعرة ، وهي آفة التدخين التي تحصد كل عام ضحايا يبلغون أربعة ملايين شخص يلقون حتفهم .

وهذا الرقم المرعب يا أبناء الحمام ، يبلغ عشرة أضعاف ضحايا القنبلتين الذريتين اللتين ألقيتا على (نجازاكي وهيروشيما) في نهاية الحرب العالمية الثانية . . وهو يزيد للأسف أيضاً عن ضحايا مرضى الإيدز ، الذين يزيدون زيادة مستمرة ، خاصة في إفريقية " .

تقاطع الحمامة سلوى ، الحمامة أفنان الأم ، وفي لوعة وحسرة تسألها قائلة : " ومتى يا أم يقلع الإنسان ويتوب قبل الفوت ، ومتى يتوقف عن حربه مع نفسه وينشر بداخلها السلام " ؟

في امتعاض وأسف تقول أفنان : " عندما يُدرك أن العقل نعمة ، بل تاجٌ ميزه به المولى سبحانه وتعالى عن سائر مخلوقاته ، وأن زيادته تُعد زيادة في القرب إلى الله . . يحتبس صوت أفنان في حنجرتها قليلاً ، بعدها تقول بصوت يمتزج بالألم والحسرة : " عندما يتعجب من نفسه ، فيُدرك أن أذنيه لم تسمع إلا وساوس الشيطان ، وأن كل قرش ، أو درهم صرفه على هذا الأمر سوف يحاسب عليه ، بل سوف يحاسب أيضاً على الوقت الذي أنفقه في هذا العبث المدمر ، وصدق الأديب السفاح ، والسفاح الأديب " الحجاج بن يوسف الثقفي " حين طرح السيف والدم جانبًا وصعد المنبر ، وقال بحكمة الثعالب : " إن رجلاً ذهبت ساعة من عمره في غير ما خُلق له لجدير أن تطول حسرته " .

رأى أحد شيوخ الحمام أن الحزن بات يعتصر قلوب الحمام ، والطيور الصديقة ، من هول ما سمعوه ، ولم يألفوه ، فقال منبهًا ، بل معلمًا : " يا طيور السلام لعلنى أجزم أن حرب الإنسان على نفسه ، والحروب الأخرى ، إنما هى نتاج الحرب التى تأتى على الأخضر واليابس ، والتى اجتمعنا اليوم بشأنها ، لذلك أدعوكم للعودة إلى الحديث عنها ، والوصول فى أسرع وقت ممكن للخُطوة الأولى التى سوف يسير على هديها الحمام ، وإياكم والتأجيل ، والتراخى ، وأنصاف الحلول ، فإنها أصبحت مضيعة للوقت ، وعليكم يا أبناء الحمام أن تتعاهدوا على ألا تغادروا أماكنكم اليوم ، إلا وأنتم تضعون النقط على الحروف بشأن الخُطة الأولى ، وإلا تاهت أمام عقولكم معالم الطريق ، وفقدتم البصر والبصيرة فى وضح النهار " .

وافق الحمام على رأى الشيخ المتكلم ، حينذاك اغتنم حازم الفرصة ، وأخذت عيناه تتفرسان الصفوف الأولى ، وعندما شاهدت عيناه هذا الذى يبحث عنه ، ابتسم وقال : " يا والدى حدثتنى بالأمس ، فقلت : إن على الضعيف أن يفطن لحاله جيداً ، ثم ينظر بعين أولى الألباب فيما حوله ، لكنك يا أبى عندما رأيت الليل قادمًا علينا وهو يلقى على أعيننا ثيابه السوداء ، طلبت منى أن نستكمل الحديث فيما بعد .. فهلاَّ تسمح لى الآن أن تقص بقية الحديث على الملأ ؟ .

يتنهد الأب ويبتسم علامة على الموافقة ، ثم يقول : " فى عالم الحمام ، الحمام الكبير يُعلم الحمام الصغير علوم الطيران ، وكيفية بناء الأعشاش ، والسعى إلى الرزق .. وفى دنيا البشر يُصر الأباء على أن يشرب الصغار اللبن ، حتى يصبحون أقوياء ، وأن يضرب الولد من ضربه ، وأن يمزق ثياب من مزق ثيابه .. أما الدول الضعيفة فما زالت تخفق إخفاقًا يدمى القلوب ، وتتسع له العيون ، فيما وصل إليه طير الحمام الرقيق ، وفيما وصل إليه البُسطاء من البشر ، أتدرون لماذا يا أبناء الحمام " ؟ .

فلما قال الحمام : اللهم لا ندرى ، قال الأب : " لن أجيبكم على هذا السؤال بمنطق الطير ، بل بمنطق البشر . . فهذا إنسان يحاور صاحبه فى نفس الموضوع فقال له : " إن ولداً هزيلاً استطاع بالأمس أن يوقف شارعًا بأكمله على قدم وساق ، وإن ولداً آخراً فى الفصل : قصيراً ، رفيعاً ، استطاع أن يهزم فتوة الفصل الطويل ، العريض ، المُرعب ، الذى كان يستخف بقصر قامة خصمه ، وبضعفه .

فلما سأل الثانى صاحبه فى عجبٍ : " كيف يهزم الضعف القوة " ؟ .

قال : " عندما يتخلى الضعيف عن ضعفه ، وعن تراخيه المبالغ فيه ، وحين تصل الروح الحلقوم . . عند هذا الحد تتحول القوة إلى ضعف ، والضعف إلى قوة ساحقة ، وليس هذا فحسب ، بل عندما يُصبح الحق ، والإيمان هما سلاحا الضعيف ، والباطل ، والغطرسة هما سلاحا القوي ، فقل حينئذ على القوة السلام . . ولعل هذين السلاحين الفولاذيين هما اللذين جعلا الغُر المحجلين يفتحون البلدان ، والأمصار رغم قلة عددهم ، وبدائية سلاحهم ، بالقياس لسلاح القوة الثانية ، ولعلى أجزم أن هذا هو الذى سوف يحدث آخر الزمان " .

أراد أحد الشيوخ المعروف فى مجتمع الحمام بحسمه وحزمه للأمور ، أن يُطلق شرارة الخُطة الأولى فى سبيل الدعوة إلى السلام ، فنظر إلى الحمام وقال : " يا معشر الحمام فلتسمعونى الآن " .

اتجهت أنظار الحمام والطير كلها إلى الشيخ المتحدث ، وتطاولت الرقاب والشيخ يقول فى هدوءٍ : " أتعرفون " يعفور " هدهد سليمان ـ عليه السلام ـ ؟ وماذا فعل مع " بلقيس بنت البشرخ " ملكة سبأ " ؟

قالوا : اللهم لا نعرف ، إلا اسمه منك الآن ، ولا نعلم الكثير ، ولا القليل عنه ، فليتك أيها الشيخ تُلقى على مسامعنا نبذة عنه ، ثم تحدثنا عما تقصده من وراء حديثك عن يعفور الهدهد " ؟

قال الشيخ : " عندما أراد نبى الله سليمان ، عليه السلام ، أن يبعث برسالة إلى بلقيس ملكة سبأ ، أرسل فى دعوة الهدهد ، فلما حضر الهدهد إليه ، قال له سليمان : " خذ هذه الرسالة ، وألقها على بلقيس وهى فى مجلسها ، وانتظر غير بعيد لتعرف الرد على الرسالة من خلال كلماتها التى سوف تتفوه بها مع أعوانها . . وفعل الهدهد ، ما ائتمُر به ، وجاءت بلقيس بإذن الله إلى سليمان طائعة ، مسلمة " .

وإننى لأدعوكم اليوم ، أن نحذوا حذو يعفور الهدهد ، ونرسل - ونحن أعرف الطيور بحمل الرسائل - برسائل السلام إلى جبابرة الأرض والزمان ، لعل عقولهم تفيق من مخدر الغطرسة الذى يسفونه سفًا ، والذى يُعد أقوى أنواع المخدرات هذه الأيام على العقول . . وإيانا يا معشر الحمام أن نتسرع بالتفكير فى الخُطة الثانية ، إلا عندما نستحكم حلقات الخُطة الأولى ، حتى لا يكون هناك تسرعًا من جانبنا " .

وافق الحمام على كلام الشيخ ، وقبل أن ينفض الاجتماع ، اختير على الفور من بينهم ، من يكتب مضمون الرسائل ، ومن يحملها ، وإلى من ترسل . . فلما عرف كل واحد من الحمام دوره ، واتفقوا على الموعد ، انصرف كل إلى حال سبيله والصدور تمتلئ بالأمل الذى عقدوا عليه العزم ، ألا يضعف ، أو يخور .

* * * * *

شهداء رسائل السلام

في مجلس أشبه بمجلس الحرب اجتمع شباب الحمام ، وفي حماسةٍ وكياسة راحوا يكتبون الرسائل التي تحث عُميان القلوب ، عُميان العقول ، على العيش في سلامٍ ، والعمل على إيقاف آلات الموت المسْعُورة ، التي تعربد هنا وهناك .. وعندما فرغوا من كتابة الرسائل ، عرضوها على الكهول ، ثم الشيوخ ، فلما باركوها ، اتفقوا فيما بينهم على أن يكون اليوم التالي هو يوم التنفيذ .

كان هواء الصباح العليل يُداعب الأغصان ، وأشعة الشمس الدافئة تمر على الأشجار ، وبين الأوراق ، وكأنها تزيح عنها ذلك الخمول الذي نثره عليها الليل ، وينبهها بقدوم الصباح .. ومن يدري لعل الشمس أرادت أن تشارك الحمام فرحته بموعد تنفيذ خُطة السلام .

وانطلق خيرة شباب الحمام يحملون الرسائل المكتوبة بكل اللغات إلى رموز العتاة وقادتهم ، يدعونهم فيها إلى إصدار الأوامر الفورية بوقف زحف العجلات الحربية إن كانوا فاعلين ، وتخليهم عن النظرة الاستعمارية ، التي لا تتوافق ، ولا تتناسب مع القرن الواحد والعشرين ، قرن العلم والتكنولوجيا ، وأن يجنحوا للسلم كافة ، وأن يكفوا عن الظلم ، وأن يلقوا بميزانهم ذي الكفة الواحدة في اليم ، وأن يستبدلوه بميزان بكفتين ، يتناسب مع التقدم والرقي الذي يدَّعونه في صباحهم ومسائهم ، وفي حلِّهم وترحالهم .

كانت رحلات الحمام في دعوته للسلام طويلة ، وشاقة ، ومجهدة ، لذلك قام الحمام بتقسيم نفسه إلى مجموعات تقوم بالطيران من بلد إلى بلد ، ومن قارة إلى قارة .. وكان الإيمان بالهدف يملأ قلوبهم ، والإصرار على مواصلة المشوار هو حلمهم ، الذي لا يفكرون لحظة في أن يحيدوا عنه ، وإن كلفهم ذلك الجود بالأرواح في سبيل أن ينعم الآخرون بنسيم الحرية والسلام ، الذي صار كل منهما عزيزاً في مجتمعات لا تعرف إلا القوة والبطش طريقًا لها .

انتشر خبر حمام السلام الذى يحمل الرسائل ، إلى رموز وقادة العتاة ، فى كل رُبُوع الدنيا ، أسرع من البرق ، والنار فى الهشيم ، عن طريق الإذاعات ، والشاشات والأقمار الصناعية ، بل وعن طريق عفاريت الإنس ، والجن ، الذين راحوا يزعمون بالباطل الذى يجيدونه ، أن الحمام موفد من قبل بعض الدول الإرهابية التى تؤْوى الإرهاب وتموله ، وأنهم أقدموا على ذلك ، حتى تكف الدول راعية السلام عن سعيها الحثيث إلى قطع دابر الإرهاب أنَّا وجد .. وسرعان ما غلقت القلوب أبوابها أبواب الحقد والمقت ، وصُمت الآذان ، وطُرح على العقول ثوب الغباوة ، وعميت الأبصار ، فصارت لا تعى مضمون رسائل الحمام الذى لم تفتر له عزيمة ، ولم يضعف له إيمان ، والذى ما زال يجود بالأرواح فى سبيل دعوته للسلام ، التى أصبحت حقيقة لا رمزاً .

ورغم أن شهداء رسائل الحمام بدأت تتزايد اليوم تلو الآخر ، إلا أن الحمام ، أصر إصرار العابدين على ألا يفزعه منظر الموت وهو يتواثب إليه فى عجلة ، أو يعود القهقرى ، خاملاً لا يفكر إلا فى اللهو ، والعبث ، والطعام ، والشراب ، والإنجاب ، بل أن يدفع دفع السماحة بالأرواح ؛ لأنه أقسم بالأمس قسماً لا رجعة فيه .

أما الذين يُحبون السلام حبهم للماء البارد فى اليوم القائظ ، فراحوا يهتفون من أعماقهم : أنْ يا خلق الله لا توجد دولٌ تُؤْوى الحمام كما زعمتم ، بل هو نابع من إيمان الحمام بأهمية السلام بين البشر ، وبين الطير ؛ لأنه هو الآخر مخلوق يتجرع مرارة الحرب والدمار التى تطل علينا برؤوسها فى الصباح ، وفى المساء .. وما يضير أساطين العلم والتكنولوجيا ، أن تدفع بعض الدول بحمام السلام ، وهو يحمل رسائل السلام ؟ أوَ ليس هذا الذى أخرج الحمام عن طوره ، بالسبب الجوهرى الذى يدعوكم أن تقولوا ، إن هذه الدول ليست إرهابية ، بل تدعو إلى السلام ، ولا تُؤْوى الإرهاب ، كما تزعمون عشرات المرات فى اليوم ، وتروجون لهذا عبر أبواقكم ، وشاشاتكم ؟

أصبح الناس في كل دول العالم تتملكهم الدهشة ، وتدور في عقولهم الأسئلة ، التي لا تجد حلاً ، عندما يستمعون إلى الأخبار ، التي تشير كلها إلى أن سبباً مجهولاً ، وراء خروج الحمام وهو يحمل رسائل السلام هنا وهناك ، بدون انقطاع ، أو توانٍ عن القصد الذي يرمي إليه .

وصار التلفاز ، والإذاعة ، والصحف اليومية في كل بلد ، لا يغمض لها جفن في ليلٍ ، أو نهار ، لنقل ما يجري داخل حجرات الاجتماعات ، أو بين الناس في الشوارع .

وكثرت الحكايات والأقاويل حول ما أقدم عليه الحمام . . وخرج من بين الناس من يقول : " إن هذا الحمام ، وإن كان يشبه الحمام الذي يعيش بيننا ، وألفته أعيننا ، إلا أنه ليس هو ، لذلك طالب البعض بسن القوانين الفورية التي تحرم أكل الحمام ، أو صيده ، أو قتله " .

وكما هي الحال في دنيا البشر من قديم الزمان ، أن ينقسموا إلى أنصار حق وأنصار باطل . . فإن أنصار الباطل راحوا يشجبون تارة ، ويندددون تارة أخرى ، ويرددون أن هذا الحمام تُطلقه عصابات الإرهاب ، وخفافيش الظلام . . فهو أحد أسلحتها الرخيصة للضغط ، ولتخويف أصحاب القوة ، لذلك صارت الهتافات المعادية للإرهاب ، وحمام السلام ، هي سمة أهل الباطل . . وما هو الإرهاب ، لكنه جهل الجاهلين .

أما أولو الألباب ، أصحاب الفكر المستنير ، والصدور الشفيفة فقالوا : "ويح بني البشر ، ألا يعتبرون ؟ ألا يعملون عقلهم لمرة واحدة في الحق ؟ ويفكرون بروية ؟ كيف يؤجر الحمام للدعوة للسلام ! كما تردد ألسنتهم ؟ أو يطمع ، أو يطمح الحمام في مالٍ ، أو جاه ، أو منصب كما يطمعون ويطمحون هم ؟

توقف أولو الألباب عن حديثهم قليلاً ، إلا أنهم قالوا مرة أخرى : " الحمام يا خلق الله ، لا يطمع فى أكثر من الطعام والشراب ، وهو يعلم أنه على بعد أمتار ، ولا يزاحمه فيه أحد إلا أنه لن يحصل عليه ، إلا من خلال السعى الدؤوب ، لهذا فهو يسعى ، ولا يلتفت لهذه الادعاءات الكاذبة ، والحجج والبراهين ، التى أصبحت أهون من بيت العنكبوت " .

وهؤلاء آخرون صرخوا بأعلى صوت لهم ، ولوحوا بأيديهم ، وكأنهم أرادوا أن يُسمعوا العتاة الجبابرة ؛ لأنهم يعلمون أن آذانهم ضرب عليها الصمم ، فصارت زينة فى رؤوسهم فقالوا : " يا بنى البشر ، أفشوا السلام بينكم ، وخذوا دعوة الحمام مأخذ الجد ، فهو لا يدعوكم إلى باطل ، أو إلى النار ، وكيف ؟ وأنتم المالكون لمفاتيح نار الدنيا ، من خلال آلاتكم الحربية ، التى صنعتموها لهذا الغرض ، الذى بات يفضحكم بالصوت والصورة " .

واستغل المنافقون هذا الحدث الخطير ، الذى يُعد عُرسًا لهم ، وخرجوا فى زينتهم ليدلوا برأيهم المبتور ، والحمام ينظر إليهم ، وإلى كل ما يحدث على الأرض ، من البشر - عمار الأرض - وتلبدت عيون الحمام بالغيم ، وراحت تتساقط حبات الدمع الدفاق ، وكأنها قطرات المطر ، تنزل من السماء ، ليست نعمة يسعد بها الزرع ، وتسعد بها الأرض الأم ، بل صارت غضبًا على من يصرون على العمى ، وهم المبصرون . . أما قلوب حمام السلام فأصبحت تدمى على الحال التى وصل إليها الإنسان ، الذى ميزه الله تعالى على سائر المخلوقات بالعقل ، إلا أنه أسرع فأغلق أبواب عقله بأقفال ، وقذف بمفاتيحها فى البحر اللجى ، فأصبح بين عشية وضحاها ، كالضبع لا يستطيع أن يستدير برقبته ذات اليمين ، أو ذات الشمال .

ولو انتقلنا إلى شباب الحمام الرابض فى بلدان أعداء السلام وجدناه ما زال يتوهم ، أن رسائل السلام سوف تؤتى ثمارها ، وسوف ينصاع لها هؤلاء الجبابرة ،

إن لم يكن اليوم فغداً . . وكانت حجتهم ، أن للعلم بريق تتفتح له مدارس وفصول العقول . . ولم يخطر ببال أحدهم أن هذا العلم الذى يدعيه العتاة ، أعداء السلام فى الصباح والمساء ، إنما هو علم مزيف ، وأن غاشية ظلامه أخذت تضرب أطنانها على عقولهم ، فصارت تغط فى سبات عميق ، فأصبحت لا ترى نور العلم الوضاء .

وتمر الأيام بطيئة متثاقلة ، والعتاة الجبابرة هم هم ، لم تتحرك عقولهم خطوة ، ولم تغمض لقنابلهم وصواريخهم الفتاكة جفن ، والأبرياء من البشر والحمام مازالوا يتساقطون كأوراق الشجر فى لية شاتية ، وحمام السلام لا تفتر له عزيمة ، ولم يتوقف عقله اللبيب قيد لحظة عن التفكير .

لكن ثمة تحركات واسعة النطاق فى بلدان العتاة ، تعقبها اجتماعات مغلقة . . أراد حمام السلام الذى يقف غير بعيدٍ ، أن يُدرك فحواها ومغزاها ، إلا أن مجهوداته الحثيثة باءت أول الأمر بالفشل .

ولكن عندما باتت العيون تنظر إلى الحمام نظرات لا تخلو البتة من الغدر والانتقام . . هنا أدرك الحمام ، أن ثمة جريمة بشعة تنتظر الحمام بين الفينة والفينة ، فأسرع كل واحد منهم يهمس فى أذن صاحبه ، أن تنبه ، احترس ، لا تأمن جانب هؤلاء ، فعهدنا بهم أن كلماتهم تغاير أفعالهم ؛ لأن قلوبهم متقلبة ، وعيونهم زائغة .

قررت أسراب حمام السلام التى تقف غير بعيد ، أن تتخفى عن أنظار أعداء السلام ، وأن تُطلق لعيونها وآذانها العنان ، لتعرف مفاد هذه التحركات والاجتماعات المريبة .

وذات مساءٍ ، وكان الليل قد أوغل ، سمع حمام السلام المرابض بالقرب من معاقل الجبابرة أعداء السلام ، صوت جلبة ، فأطلت بعيونها تارة ، وتارة أخرى بأذانها ، تنظر وتسمع إلى ما يدور فى ممالك شياطين الإنس .

رأى الحمام جمهرة حول شاشات التلفاز ، وسمع كلمات الموت تتواثب من أفواه المذيع وهو يقول : " على من يقوم بتربية الحمام فى منزله ، أو فى بستانه ، سرعة التوجه والليل يسدل أستاره ، فيغلق أعشاش وأبراج الحمام وهو يغُط فى نومٍ عميق ، لا يدرى ما يدور حوله . . وأن يُسرع الخطو ، فيسلمه لوزارة الدفاع ، أو إحدى وحداتها ، وعلى الجميع أن يعلموا أن التقاعس ليس فيه صالحهم ، أو صالح البلاد " .

يتوقف المذيع هنيهة ، ويمتلئ وجهه بصمت فيه رهبة ، وسَرعان ما قال مرة أخرى فى حدةٍ : " قد رصدت الدولة مبالغ كبيرة ، لكل مواطن يقوم فيقتل حمامة ، أو يُسرع بتسليمها مضرجة بدمائها ، أو مجروحة تئن من أوجاعها " .

أفزع حمام السلام ما رآه وسمعه ، وأجهشت العيون بالبكاء ، وسرت الرعدة فى الأوصال ، فاصطدمت الأجسام بالأجسام ، وراح كل واحد ينظر إلى الآخر ، وكأن لسان حاله يقول : " ماذا نفعل ، والليل قد أسدل أستاره السوداء على العيون ، فصارت لا ترى مواقع أقدامها ؟ كيف نصل إلى جماعات الحمام البرئ ، ونحن لا نعرف إلا القليل من أماكن تواجده ؟ وإن أردنا سُرعة الوصول إليه قبل أن تنسج الأيدى الغادرة أكفانه ، ويصبح الموت قاب قوسين أو أدنى منه ، حال الليل بيننا وبين هذا الذى نعتزمه ؟!!

فى أسفٍ ولهفة قال أحد شباب الحمام : " لئن انتظرنا حتى قدوم الصباح لرأينا المشانق وقد التفت حول أعناق الصديق الحمام ، ونحن ننظر إليه فى عجزٍ ، ولا نستطيع أن نقدم له يد المساعدة . . وإن خرجنا الآن ، فسوف نصطدم بالأسوار العالية التى يقيمها الليل كل يوم عند قدومه ، فماذا نفعل ، وبسرعة " ؟؟ .

يتنهد آخر ، فتخرج من فيه زفرة ألم ، بعدها يقول : " علينا ألا ننسى ، أننا ما جئنا إلى ههنا إلا من أجل السلام ، وأننا أقسمنا على أن نجود بالأرواح ، من أجل تحقيق هذا الحلم ، الذى صار غايةً وهدفاً " .

يتوقف ذكر الحمام المتحدث قليلاً ، ثم يقول مرة أخرى ، والكلمات تخرج من فمه مبحوحة متقطعة : " لا وقت أمامنا للتلكؤ ، لابد أن نخرج الآن ، غير مبالين بأسوار الليل العالية ، فمن يدرى ، فربما نصل إلى الصديق الحمام ، قبل أن تُنصب له المشانق ، وتغلق عليه الزنازين .. وعلى كل منا أن يودع صاحبه ؛ لأننا لا ندرى ، أسوف تُكتب لنا النجاة ، أم يقع أكثرنا شهيداً تحت ستار الليل الحالك" .

يحاول أحد أفراد الحمام أن يُلطفَ من حدة الحدث فيقول : " إن كنا لا نستطيع الرؤية فى الليل بسهولة ، فهم الآخرون لا يستطيعون أن يقتلوننا فى الليل ؛ لأنهم لا يقوون على التمييز وأنوار الليل قد أطفأت ، والقمر ما زال فى إجازته الشهرية " .

وانطلق حمام السلام فى مهمته الإنسانية ، وهو لا يدرى إلى أين تسوقه الأقدار ، أإلى الموت المحقق ، أم إلى خلاص الحمام الصديق من ثياب الموت الجاهزة الآن " ؟؟ .

وارتطمت أجسام عدد ليس بالقليل من حمام السلام بأسوار الليل العالية ، فهوى من عليائه شهيداً ، والبِشْرُ لا يفارق محُياه ، وهو يجود بأنفاسه الأخيرة ، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الحمام الصديق .

استطاع حمام السلام إنقاذ أعداد كبيرة من الحمام الصديق ، لكنه لم يستطع إنقاذ البقية الباقية .. وعاد حمام السلام ، وبرفقته الحمام الصديق ، والجميع يتمتمون بالدعاء ، والعيون تدمع على هؤلاء الشجعان الذين دفعوا بأرواحهم دفع السماحة فى هذه المهمة الإنسانية .

وانبلج نور الصبح ، وحمام السلام ينتظر فى لهفةٍ ، بين الفينة والفينة ، ماذا يفعل أعداء السلام بالحمام .. فلما سمعوا طلقات نارية متوالية ، لا تتوقف لحظة لتلتقط أنفاسها ، ظنوا أول الأمر أن هناك دعوة إلى عُرس ، أو حفلة ،

لكنهم سرعان ما تراجعوا عن ظنهم هذا ، لعلمهم أن الحفلات لا تكون إلا في الليل ، وليس في النهار .

اتفق حمام السلام فيما بينه ، أن يخرج بعض نفر من بينهم للوقوف على الخبر ، فلما فعلوا رأوا الحمام الصديق الذى لم ينج من الموت البارحة ، مُضرَّجًا فى دمائه على الأرض بلا حراك فى بركة من الدماء ، وما زالت البنادق تعمل فى همة العفاريت على موته .. كما شاهدوا السجون ، وهى الأقفاص ، قد أغلقت على الآخرين ، والأقدام تهرع إلى تسليمه ليلقى هو الآخر الموت بعد قليل .

أجهش الحمام بالبكاء ، على هذه العقول التى أصابها الشطط ، فصارت لا تميز بين الخير والشر .. وفى حزن يمتزج بالألم قال قائد الحمام : " لم تكن الجريمة تتطلب من هؤلاء العتاة الجبابرة أى جلد ، أو قوة ، أو بطولة ، كانت تتطلب - لا غير - ضميرًا ميتًا ، وتفكيرًا ضالاً ، وقلبًا أعمى ، وإرادة ممسوخة . لذلك كان تحركنا فى الليل الذى لم نألف الخروج فيه ؛ لأننا نعلم أنها فرقة ، بل عصابة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، ثم تخرجها إلى باطل يحفه الموت من كل جانب " .

والآن علينا العودة إلى مجتمع الحمام ، وفى رفقتنا الحمام الصديق ، لنعرض ما شاهدناه ، وما سمعناه ، فلعل الخُطة الثانية تقصم ظهورهم ، وتوقف أمراض قلوبهم ، وشطط عقولهم " . وقفل حمام السلام راجعًا إلى مجتمع الحمام، وما زال أمل الانتصار يملأ قلبه ، بل ويزيد .

* * * * *

الخُطة الثانية

انتصف النهار ، أو يكاد وعم نور الشمس البطاح والأودية ، ونادى المنادى : " أن هلموا طيور الحمام ، فالمجلس اقترب أن ينعقد " .. وبدأت طيور الحمام تأتى من كل حدب وصوب ، هى والطيور الصديقة المحبة للسلام .. وبدأ الفضاء يزدحم بطيور الحمام بطريقة غير مسبوقة ، فالكبير والصغير ، لا يريد أن يتخلف عن هذا اليوم الحاسم .

وأنت إذ تطالع أسراب الحمام ، وأسراب الطيور الصديقة ، تقول على الفور إن هناك فوضى مرورية قد تحدث فى الفضاء الآن ، وأنها سوف تعوق سير الحمام .. وقد تدفع بالبعض إلى ارتكاب حوادث مرورية لا محالة .. إلا أنك لا تكاد تفرغ من حديثك مع نفسك ، إلا ويأتى من يهمس فى أذنيك ويقول : " إن هذا لن يحدث البتة فى مجتمع الحمام ، رغم أن أفراده لا يحملون رخصاً للقيادة ، ولا ينصبون أفراداً من بينهم ينظمون الفضاء ، فلا تحدث حوادث فضائية عرضية أتدرى لماذا يا هذا ؟ لأنه لا يوجد فى مجتمع الحمام أهوج ، أرعن ، فالكل فى هذا المجتمع يعلم أن الفضاء ليس له وحده ، بل للجميع " .

واصطفت الطيور ، الكل يعلم مكانه ومكانته ، ويرتضى بهما ، لا أحد يطمع فى مكان غيره أو مكانته .. فالكبير يحترم دور الشباب ، والشباب يقدرون رأى الشيوخ والكهول ، والجميع يعلمون أنه لولا هذا الرباط الوثيق لانهار مجتمع الحمام ، وما استقام ، وما صار الحب ينشر شذاه بين جوانبه .

تطاولت رقاب الطير ، واتسعت حدقات عيونها ، وهى تنظر فى لهفة إلى ذلك الشيخ الحصيف الذى وضع الخُطة الأولى ، وها هو الآن يستكمل الحديث معهم اليوم عن الخُطة الثانية والحاسمة فيقول وهم يصغون : " يا معشر الحمام ، والطير الصديق ، اليوم غير الأمس .. بالأمس كنا نتحدث عن السلام ، وكلنا أمل أن يصل معناه الحقيقى إلى مسامع الطغاة ، واليوم أقول فى أسف ، أن السلام

بات طريداً من وجدان السُفهاء ، وصار لا يلقى بينهم صدراً رحبًا ، ولا مكانًا فسيحًا ، ولا منزلاً كريمًا " .

يتوقف الشيخ قليلاً عن الكلام ، وسَرعان ما يأخذ فى النظر إلى الأفق البعيد ، وإلى وجوه الطيور ، وكأنه يقرأ صفحات التاريخ البعيد والقريب .. وما فتئ أن قال فى حدةَ وألم :" ويح البغاة الجبابرة ، يحاولون إقناع الجميع ، أنهم يتحلون بالجرأة ، وهم فى حقيقة الأمر ، مسرفون إسرافاً عظيماً فى سفك الدماء ، ويحاولون بشتى الطرق ، إقناع الناس من حولهم ، أنهم قادرون على بث الفزع والرعب فى نفوس البشر والحمام ، وهم فى الحقيقة ينسجون أكفانهم اليوم ، أو غداً .

يا معشر الحمام ، إننا جنحنا للسلام عن طيب خاطر ، إيماناً منا أنه طريق العُقلاء ، ودفعنا ثمن هذا عدداً ليس بالقليل من الشهداء .. لذلك أدعوكم اليوم ، بل استصرخكم أن تنسوا لفترة قد تطول ، أو تقصر ، أننا الحمام رمز السلام كما أطلق علينا الإنسان الحقيقى الذى يعشق السلام مثلنا ، ولكن علينا من اليوم فصاعداً أن نكون طيراً أبابيل " .

سَرعان ما حدث هرج ومرج فى صفوف الطير ، علامة البشر ، وتعالت الأصوات فرحة تُعبر عن سعادتها ، وكثر الهمس الحميم بين طيور الحمام الشاب .. فى ذلك الوقت أسرع حازم يسأل الشيخ فى لهفةَ فقال :" يا أبانا ، لعل بوادر الفرحة التى تراها الآن تعلو الوجوه ، تجعل لسانك الحُر ، يُسرع فيحدثنا عن أبعاد الخُطة الثانية الحاسمة ، وعن كيفية تنفيذها ، فكم نحن نشتاق إلى هذا اليوم الباسم أوله ، الباسم آخره ، والذى نشعر بنسماته العليلة ، وهى تُداعب قلوبنا تارة وتارة أخرى تُداعب عقولنا المتطلعة إلى الخير دائماً .

قال الشيخ ، وعلامات التفاؤل على وجهه :" مع إشراقة شمس اليوم الجديد ، تخرج أسراب الحمام ، والطيور الصديقة إن رغبت إلى معاقل الطغاة

الجبابرة، يرمونهم هذه المرة بالحجارة، وليس برسائل السلام ".

توقف الشيخ عن الحديث، وراح ينظر إلى الطير، وفجأة قال لهم محذراً بصوت غليظ: " إياكم يا جند الحمام حين ترمون بأسلحتكم الفتاكة رؤوس الجبابرة أن تقتربوا من الأبرياء الأطفال، والنساء، والشيوخ، فإن كان هذا يا أبناء الحمام والطير هو منطقهم، ومنهجهم الذى دأبوا عليه، فعلينا أن نعلم جيداً، أن هذا ليس بمنهجنا نحن، ولا بمنطقنا الذى شببنا عليه ".

وإن كان هذا هو دور جند الحمام، فهناك دور لايقل فى أهميته عن هذا الدور، وهو أن يتطوع عدد من أسراب الحمام.. كل سرب يتجه إلى معقل من معاقل الطغاة أعداء السلام، وهناك يقف أفراد السرب غير بعيدين، ليشاهدوا وقع الصدمة على نفوس جنود أعداء السلام، ويسمعون ما يدور على ألسنتهم، التى اعتادت على الكذب، حتى صار الكذب بمثابة الدم يجرى فى عروقهم، ثم يأتون إلينا بأخبارهم، التى على ضوئها تدور الدوائر، وتنصب الشراك ".

وفى وقت وجيز تكونت الفرق، والأسراب المعاونة، وعرف كل سرب دوره، وعرفت كل فرقة طريقها.. عند ذلك أشار الشيخ الحصيف واضع الخُطة إلى جُند الحمام والطير، أن ينطلقوا الآن إلى الأعشاش لينالوا القسط الوفير من الراحة.. فإن موعدهم لغد، وهم يلقنون الجبارين الدرس والدروس.. وبدون تردد انطلق جُند الحمام والطير، كما أمرهم أبوهم الشيخ.

* * * * *

الطيــرُ الأبــابيــل

وانبلج نور الصبح ، واصطف شيوخ وكهول الحمام ، يدعون بالتوفيق للطير الأبابيل قبل خروجها إلى المهمة الحربية ، ويحثونهم على عدم التخاذل ، ويبثون في نفوسهم الحماسة ، وإن كانت تزيد وتفيض داخل صدور جُند الحمام.

وانطلقت أسراب الطير الأبابيل ، تحمل سلاح الإيمان في أفواهها ، وهي لا يفتر لها حماس ، ولا يضعف لها إيمان .. الكل يعرف وجهته ، ويسعى إليها سعياً حثيثاً نابعاً من إيمانه المنقطع بالسلام ، وأنت حين تنظر لجُند الحمام ، وهي تطوي الفضاء في همة ، تجد صدورها تعلو وتهبط ، ليس من شدة التعب ، ولكن من كثرة التمتمة بالدعاء.

وصلت الطير الأبابيل إلى مواقع أعداء السلام ، وسَرعان ما أخذت تدق بصواريخها الجو أرض تلك الرؤوس التي خلت من العقول ، أو بالأخرى العقول التي ترتدي تلك الثياب التي راحت فاستوردتها من عالم الشياطين المردة ، وأبت أن تجلبها من عالم الإنس ، وهي لاتعلم أن الطير كثير التسبيح والاستغفار ، وأن التسبيح والاستغفار ، يحرقان الشياطين وثيابهم.

عمت الفوضى معاقل أعداء السلام ، وكثر عدد القتلى بين صفوفهم وتلوثت الأرض بالدماء غير النقية ، وأسرعت الأرجل تُطلق لنفسها العنان وهي تولي الأدبار ، هرباً من فلول الحمام التي زأرت ، وكشرت عن أنيابها .. وتعالت صيحات الخوف والفزع تدوي في كل مكان ، وراحت العيون تنظر في هلعٍ إلى جُند السماء ، وكأنها تستعطفها ، بل ترجوها ألا تصب عليها حُمم غضبها ..

فهل يُصغى الحمام يا ترى لتوسلات من وضعوا على قلوبهم وعقولهم الأكنة ؟ فصاروا صمًا ، بكماً ، عُمْياً فهم لا يفقهون.

نفضت سيارات إسعاف أعداء السلام ترابها وغبارها المتراكم على جسدها منذ سنين ، وفى سرعة أخذت تسابق غطيط محركاتها ، فلما تغلبت عليه بعد عناء ومشقة ، أخذت تجوب الشوارع والميادين لتنقذ هذا الكم الكبير من الجرحى والقتلى الذى خلفته أحجار الطير الأبابيل قبل أن تخمد الأنفاس منهما.

لم تلتقط سيارات إسعاف العُتاة الجبابرة أنفاسها لعدة أيام من القتال المحموم من جانب الطير الأبابيل ، ومازالت جُند السلام لاتهدأ لها ثائرة .. وباتت عيون أعداء السلام تنظر فى لهفة إلى السماء ، وهى تبكى قتلاها بكاءً لم تعرفه من قبل، وكأنها تستغيث بالسماء من جُند السماء ، حتى يكفُوا عن قتالها .

فى سرعة راحت الطير الأبابيل تستقرئ عيون هؤلاء الجُهلاء وأعداء السلام ، وتسمع بكاء تلك القلوب التى وضعت بالأمس ثياب الغباوة وسَرعان ما رفع حمام السلام عيونه إلى السماء وقال بلسان سؤول ، وقلبْ عقول : " يا أيها السماء ، فلتشيحى بقمرك الوضاء عن هؤلاء ، ولتطفئى يا سماء شمس نورك الوهّاج ، ولتحجبى ذاك الدفء عن أجساد هؤلاء ، ويا خير السماء الدفاق فلتكف عن أرض هؤلاء ، آنذاك يهلك زرعهم ، وحرثهم ، ونسلهم ، كما فعلوا ويفعلون هم كل يوم بزرع ، وحرث ، ونسل الأبرياء.

يا أيتها السماء الرحيمة ، لاتسمعى لتوسلاتهم البتة ، ولاترحمى قتلاهم فهم لم يرحموا قتلانا ، حتى الأطفال الرُّضع ، والبهائم الرتَّع ، والشيوخ الرُكع ، لم يرحموا ضعفهم .. بل سكبوا عليهم الموت بسلاح العلم الذى وَهْبته لهم ذات

يوم .. يا أيتها السماء أبرقى ، وأرعدى ، وبثى الخوف والرعب فى نفوسهم .

فلما بَرَقتْ ورَعَدتْ السماء لدعاء جُند السماء ، انطلقت الطير الأبابيل تدق الرؤوس التى خلت من العقول دقاً بأحجارها المباركة .. وانطلقت سيارات الإسعاف فى همة العفاريت تعمل ، بعد طول بطالة .

شاهد جندى الحمام "إياد" ، أن الدمع يراود أجفان بعض نفر من الحمام المقاتل ، وعلامات الحزن تبدو على وجوههم .. حزن إياد لحال جند الحمام أيما حزن ، وفى سرعةٍ اقترب منهم وسألهم فقال « فيمَ كل هذا الحزن يا أصدقاء ، وأنتم الأعلون الذين ترون أعداء السلام يفرون أمام أحجاركم فرار الظباء من الأسدة " ؟

يعقب "عمرى" على سؤال إياد فيقول فى غصةٍ بعين لامعة ، وكأنه ارتكب جرماً تكاد تتفطر منه السموات والأرض :"فى إحدى الجولات الحربية ، ونحن نمطر أعداء السلام بحممنا سمعنا بعضهم وهم يَعْدُون من شدة الفزع والوجل ، وينظرون إلينا ويقولون : "كفوا عن أحجاركم جُند السماء ، إننا قوم دعاة للسلام ، ولأننا يا إياد لانقاتل من نطق بها ، فترانا وكأن الهم ، والحزن ، والعبوس لا يعتلى وجوهنا فقط ، بل يسير معنا أينما ذهبنا .. ناهيك عن الخوف من السماء الذى تمتلئ به قلوبنا ، فنحن لم نخرج ، ولم نلبس ملابس الحرب إلا من أجل السلام ، فكيف بنا اليوم لانلتفت لمن يستنجد ويصرخ بها" ؟

يهدئ إياد من روع عمرى والرفاق ويقول وهو يربت على أكتافهم : فليذهب حزنكم ، فإنه لا محل له .. فلما وجد إياد أن أعين الأصدقاء قد اتسعت من شدة الدهشة ، سألهم :« كيف وجدتموهم ، قبل أن تضربوهم ؟

في لهفةٍ يقول عمرى :« رأينا بعضهم يقف خلف ما يُسمونها بالمدرعات والبعض الآخر يتقدم ، وفي أيدى كل منهم بندقية ثقيلة ، مزودة بعدسات ، يُطلقون عليها " بنادق القناصة " .

يقاطع إياد ، عمرى ، ويسأله فيقول :" أو كان هؤلاء الجُند في حالة استرخاء ، أم حالة تأهب قصوى ؟ هل كانت معداتهم الثقيلة تغط في نوم عميق ، أم كانت تتحرك " ؟

تنبه عمرى إلى ما يقصده إياد ، عندما عقب على السؤال بقوله : بل كانت عيونهم وأجسامهم متحفزة ، والبنادق في أيديهم تضرب في جميع الاتجاهات بعشوائية ، وانتقام لم أر مثله قط . . أما مدرعاتهم فكانت تبدو وكأنها خرجت لتوها من تحت الأنقاض . . والصرخات والدعاء تلاحقهما أينما اقتربوا ، ولعلنى أجزم صديقى إياد ، أنها صرخات أبرياء فإننى أستطيع أن أميزها من على بعد أميال في سهولةٍ ويسر ، بل أستطيع أن أميزها وأنا معصوب العينين» .

في امتعاض وأسف يَرُد إياد قائلاً :« أتستطيع يا بن الحمام ، أن تميز صوت الأبرياء من بعيدٍ وأنت معصوب العينين ، وتخفق إخفاقاً كبيراً في تمييز صراخ وتوسلات القتلة الأوغاد ؟ ! !

ينعقد لسان إياد برهة ، وكأن بيانه وحجته قد ذهبتا بلا رجعة ، ويختنق بالعبرات ، إلا أنه استطاع أن يتمالك ، ويعاود حديثه فيقول :" أو لم تقرأوا أفعالهم في عيون الأبرياء الذين يُقتلون كل يوم ؟ أوَ لم تقرأوا تاريخهم الحافل بالخسة والعار في ميراث الآباء والأجداد ، ومن خلال أحاديثهم ؟ أوَ لم تعلموا يأبناء الحمام ، أنهم قتلة الأنبياء أصفياء الله ؟ أوَ لم تعلموا أنهم نقضوا العهود والمواثيق وما زالوا يتفننون في نقضها حتى الآن" ؟

يا عمرى ، فلتهب أنت والرفاق الآن ، وبدلاً من أن يحمل أحدكم فى المرة الواحدة حجراً ، فليحمل حجرين ، وإن استطاع كل منكم أنْ يحمل عدة أحجارٍ دفعة واحدة ، فليفعل دون تردد ، ودون أن تأخذه بهم الشفقة أو الرحمة ، فهم لم يرحموا أطفالنا ، وشيوخنا الأبرياء ، فكيف بكم تطلبون منا اليوم أن نرحمهم ، أو يطلبون هم أن نرحمهم ، فلينظروا إلى أيديهم ، ولتنظروا أنتم أيضاً يا حمام السلام إلى أيديهم ، فسوف تجدونها تقطر دماً من دماء الأبرياء" .

فى عجلةٍ اجتمع قادة الدول التى تُعادى السلام ، وتدّعى بين الفينة والفينة ، أن السلام على مرمى بصر الضعفاء . . والحقيقة أن الذى يشيرون إليه هو السراب ، وليس السلام كما يزعمون من خلال أبواقهم وشاشاتهم .

وبعد مداولات ومناقشات ، واجتماعات فى الليل والنهار ، قرروا أن تصمت الآلات الحربية إلى حين دراسة ظاهرة الحمام المقاتل ، الذى أصبح لاتَفْتُر له عزيمة ، ولايتوقف عن القتال لحظة ، إلا عندما يُسدل الليل أستاره . . وأصبح السؤال الذى يتردد على ألسنة قادة أعداء السلام ، وشعوبهم ، ويبحث له عن إجابة شافية هو : ماذا لو استمر الحمام على قتاله المحموم ، وزادت أعداد القتلى ، وامتلأت القلوب باليأس بعد طول تفاؤل ؟

ولكن الأمر الذى يحتاج إلى وقفة تأمل وتحليل هو أن البعض فى بلدان الطغاة خرجوا بعد أن أزاحوا أكوام الغباؤة عن عقولهم ، فراحوا يسألون أنفسهم نفس الأسئلة التى أسمعهم إياها أصحاب السلام وعشاقه وهى : الحمام رمز السلام ، وهو وإن كان يُلقى علينا برسائل السلام ، فلأنه يعشقه ، وأن الحمام ليس مُوفداً من أحد كما زعم قادتنا من قبل .

حاول أهل العلم وأربابه في بلدان الطغاة ، أن يحملوا حبوب الفهم ليعطوها لمن أصاب عقله العطن من كثرة تعرضه لتيارات الغطرسة ، إلا أنهم صموا آذانهم ، وأصروا على أن بعض الأفراد في البلاد الفقيرة ، هي التي قامت فحولت الحمام إلى جُند ، وأن وقوف حرب الحجارة التي يشنها الحمام بات في أيدى الإرهابيين ، وليس في أيدى الحمام .

وانتهى الأمر بالعُقلاء محبى السلام ، إلى أن الحمام ليس حمام إرهاب ؛ لأنه ليس بمقدور أية دولة أن ترسل حماماً يحارب ، بل الحمام مُوفدٌ من قبل السماء .

وإن كانت عقول العُقلاء قد أسدلت أهدابها ، ونامت قريرة على أن الحمام غاضب لأنه مثله مثل البشر الذين بحت أصواتهم حتى تستبين الحقائق ، ولكن دون فائدة ، إلا أن قلوب أعداء السلام ، وإن كانت وجلة مما يحدث على أيدى الحمام ، فإن ألسنتهم ما زالت تقذف بالاتهامات التى لامبرر لها .. والغريب الذى أصبح مثار جدل العوام والخواص هنا وهناك هو : " أنه كلما زادت مبرراتهم ، زاد الحمام فى هجومه ، وزاد عدد القتلى والمصابين بين صفوف الجبارين .

إلا أن الستار مازال مسدلاً أمام دول العالم ، عن أسراب الحمام المعاونة والتى تقف غير بعيد ، تنقل بالصوت والصورة إلى مجتمع الحمام ، كل ما يدور من مسرحيات كلامية أصيب بها المجتمع الدولى ، وكذلك ما يدور داخل عقول الطغاة الجبابرة ، وما يجيش ويتحرك بداخل صدورهم .. وما يدور ويتردد فى المقابل داخل المجتمعات الأخرى ذات الصدور والعقول الشفيفة ، لذلك كانت الخُطط محكمة لدرجة أنها كانت تفزع أعداء السلام ، وتهز معاقلهم التى صورت لهم أوهامهم أنها فى مأمن ، فصارت اليوم فى متناول أيدى الحمام .

ولوانتقلنا فى سرعة إلى مجتمع الحمام ، لنأخذ لقطة عابرة ، مما يدور هناك بين الشيوخ والكهول واضعى الخطط ، لوجدنا الغضب الجم واضحاً على وجوههم، ورأينا المحاكم قد نصبت موازينها ، وأقفاص الاتهام فتحت أبوابها على مصاريعها فى انتظار محاكمة الحمام الذى تجاوز الحد ، ولم يصغ إلى الأوامر الصادرة إليه بعدم التعرض للأبرياء ، سواء فى طريق ذهابهم إلى معاقل الطُّغاة ، أو فى طريق العودة.

ومن داخل إحدى المحاكم ، وقف القاضى الشيخ ، وعلامات الغضب والجدية تبدوان على وجهه .. وفى صراحة راح القاضى يسأل المتهمين من الحمام فقال : " ويحكم يا أبناء الحمام ، كيف تُسول لكم أنفسكم الشريرة ، أن تعتدوا على الأبرياء من أبناء الوطن فى طريق عودتكم ؟ أليس بيننا وبينكم مواثيق بذلك ؟

ألا تعلمون جُند الحمام أن وجهتكم كانت ضرب معاقل أعداء السلام فقط ، فلماذا أقدمتم على جرح وإصابة أبناء وطنكم الأبرياء .. والآن جاء الدور عليكم لتدافعوا عن أنفسكم ، وإياكم والكذب ، والكلان المعسول ، اطرحوهما جانباً واتخذوا سبيل الحق فى دفاعكم عن أنفسكم ، فإن للحق نوراً ، وضده بلا وجه ، وبلا نور " .

قال حازم معقباً ، وكان واحداً من بين المتهمين : " أيها القاضى الأب ، والأب القاضى ، إنما هب الحمام مرة واحدة وهو يحمل رسائل السلام بحب ، فلما يئس من استيعاب أعداء السلام بقيمته ، حمل سلاح الحق ، وسلك مسلك الطير الأبابيل ، ليس لأنه يحب القتل وسفك الدماء ، بل ليوقف عدوان العقول والعجلات الحربية ، ونحن فعلنا ذلك مع من تُطلقون عليهم أبناء الوطن الأبرياء ، وما هم بالأبرياء" .

سَادَ الهدوء أركان المحكمة ، واعتلى الوجوم والدهشة وجوه الحاضرين ، يتقدمهم القاضى ، الذى أسرع فسأل حازم فقال : " كيف ؟ دلل يا بنى على كلامك ، حتى يطمئن قلبى ، وقلوب الحاضرين ، أنه ليس بالعدوان ، ولكنه الحب كما تزعم الآن " ؟

قال حازم سائلاً القاضى : " أيها القاضى العادل ، ما الحكم فيمن يقتل عامداً متعمداً " ؟

القاضى : " القصاص "

حازم : " وإن كان عن غير عمد " ؟

القاضى : " الدية ، والسجن " .

حازم : " وما حكمكم العادل فيمن يقدم على أن يقتل شعبًا ، ويبور أرضًا عطشًا ، ويُصر على فعل ذلك الأمر المشين كل يوم ، رغم النصائح التى تُسدى إليه وهو يغض الطرف عنها ، ويسد أذنيه فى بلاهةٍ وجهل يحتاجان من جانبنا التفسير " ؟ .

فى قلقٍ واستغراب يسأل القاضى حازم فيقول : " أمن المعقول أن يحارب فرد أو مجموعة شعبًا ؟ وحتى وإن كانوا فى استطاعتهم ذلك ، فكيف يحاربون الأرض الجماد التى ليس لها يد تبطش ، وتحمل بها السلاح ، ولكن لها فمًا تسبح به السماء .. يا حازم إن كنت صادقًا ، فعليك أن تشير إليهم ، وتفضحهم ، لتبرئَ نفسك وتبرئ أصحابك " ؟

فى لوعةٍ وحسرة يقول حازم مدافعًا عن نفسه ، وعن أصحابه : " إنهم

يا أبانا هؤلاء الجُهلاء الذين يسكبون الماء العذب الرقراق ، بل يهدرونه هدراً ، بلا فائدة ، ولا يسمعون إلى النصح والإرشاد ، بل يضربون بكل ما يسمعونه عرض الحائط ، غير مبالين أن الماء كالظل يزيد وينحسر ، وأن الإنسان الذى يقدم على إراقة الماء بلا وجه حق ، فهو المجرم الذى أمسك بالسيف وقطع ، بل بدد أرزاق شعب بأسره ، وعلينا أن نوقفه عن شططه .

يتوقف حازم قليلاً ، وكأنه يستجمع قواه ، أو خطوط الكلام ، ثم يعاود الحديث مرة أخرى فيقول : " والذى زاد من حفيظتنا بجانب حزننا هو أن هؤلاء الجُهلاء يدَّعون بالباطل أن إراقة الماء تُجلب الأرزاق ، فتراهم أيها القاضى الشيخ يُسرفون فى ذلك الأمر بلا حساب .. ولو أننا أخذنا من أحدهم درهمًا واحداً ، وألقيناه فى البحر ، لراح يلطم خديه ، ولَقَال بصوت جمهورى : "كفوا عن جنونكم ! كيف بكم تلقون برزقى ورزق أولادى فى البحر" ؟ فلما نُسمعه أننا وإن كنا قد بددنا درهمًا واحداً ، هو ملك لشخص واحد ، فأنت قد بددت أموال شعب بأسره ، وتعديت على حقوق الأرض ، التى تخرج لنا الطعام المختلف الأشكال والألوان .. عند ذلك تراه يا أبانا القاضى ، لا يلتفت إلينا ؛ لأن حديثنا ومنطقنا لا يروقه ، فماذا نفعل مع هؤلاء ، إلا ما فعلناه ، وتناهى إلى أسماعكم" ؟

وبالرغم من أن هؤلاء الجُهلاء تعدوا على حقوق الإنسان ، والحيوان ، والطير ، إلا أننا اتفقنا فيما بيننا ، على أن ننبهه فقط ، من خلال حصوات صغيرة تجرحه ، ولا تقتله ، وإنما أقدمنا على فعلتنا هذه متخذين من الأطباء دليلاً وقدوة لنا "

يقاطع القاضى حازم ، ويسأله فى دهشة فيقول : " تنصبوا من أنفسكم أطباء ! وكيف حدث ذلك " ؟.

يبتسم حازم وفى سرعة يقول : " الطبيب يعمل بالمشرط فى بطن المريض ليس بغرض قتله ، بل أنه يقدم على ذلك لينزع له الداء الذى يؤرقه فى الليل والنهار ، إذًا فهو يحبه ، ونحن أيضًا نحب هؤلاء البُسطاء ، ولكن نكره أفعالهم ، ونُسرع لننبههم لخطورة وفداحة ما يفعلونه ، فياليته يا أبانا يكون الدرس الذى يعيه كل منهم " .

يعقب القاضى فيقول : " كان عليكم أولاً أن تحملوا إليهم الرسائل ، فإن لم يستجيبوا ، كنتم أقدمتم على ما فعلتم ، ولكن ليس قبل مشورتنا " .

فى لهفة يقول حازم : " وهل باستطاعتنا أيها القاضى الشيخ ، أن نفعل أكثر مما تفعله وسائل إعلام الصديق الإنسان ، مع هؤلاء الجُهلاء ؟! إن الأمر يا أبانا يحتاج إلى وقفة ، ووقفات ؛ لأنه فى القرارات المصيرية ، لا تجدى أنصاف الحلول ، إنما نقصد بهذه القرارات ، تلك التى تتعلق بمصائر شعوب ، وليس بمصائر أفراد .

أمر القاضى الشيخ ، بأن تفتح أقفاص الاتهام عن طيور السلام ، بعدها نطق بالبراءة من التهمة التى كادت أن تلوث تاريخ الحمام الناصع البياض .

إلا أن القاضى أعقب النطق بالحكم ببعض الكلمات معقبًا على كلمات حازم فقال : " الغريب فى هذا الأمر ، وفى الأمور الأخرى الضخمة ، أنه لا يقدم عليها عن جهالة إلا هؤلاء البُسطاء ، وأزعم أن تعليم البُسطاء هو من مسئوليات

الحكومات ، ولعلني من هنا أناشد حكومات الصديق الإنسان ، إما أن تقوم بتعليم البُسطاء ، وإما أن تقلم أظفارهم ، فإن لم تفعل ، فإن التقصير عند ذلك لا يسأل عليه البُسطاء ، ولكن تسأل عليه الحكومات " .

ولو عُدنا مرة ثانية إلى ساحة الدول المعادية للسلام ، وتلك التي تعشق السلام ، عشقها للصحة بعد طول مرض ، لرأينا : أن الدول التي تُعادى السلام أصبح الفزع والهلع لا يبارحان أفرادها ، علاوة على أن حكوماتها رصدت من الذهب والفضة ما يسيل له اللعاب ، لمن يُدلى عن هوية الحمام ، وهل الحمام موفدٌ من قبل الدول ، والعصابات الإرهابية ؟ حينذاك ستقوم الدنيا وتقعد للقضاء على الحمام ، وأيضًا على الدول التي تُؤْوى الحمام .. والعجب كل العجب من أعداء السلام ألا يعلمون أن جميع الدول تُؤْوى الحمام ؟

توقفت الطير الأبابيل عن حملاتها الحربية من أجل السلام ، وجاء توقفها بعد أن صمتت العجلات الحربية ، وأصابها الخرس .. إلا أن لغز الحمام ما زال يحير عقول بنى البشر ، خاصة هؤلاء الذين لا يستطيعون العيش بلا قتل ، وبدون إراقة دماء ، وإثارة فتن وأكاذيب .

لم يفتر حماس حمام السلام ، حتى بعد توقف هدير الموت المنبعث من فوهات المعدات الحربية لأعداء السلام ، بل صار الحمام يهتم اهتمامًا كبيرًا بكل ما يدور على لسان الدول ، أو الأشخاص .

فها هو الحمام يسمع أن الدول الساعية للسلام تنفى نفيًا مطلقًا ، تلك التهمة الموجهة إليها ، وترفض التحدى السافر الذى لا مبرر له من قبل الدول أعداء السلام .. ولما كان أمر الطير الأبابيل ، قَدْ صار حديث المثقف ، ورجل

الشارع ، جئ بالمحللين ، ورجال الدين ، ليُدلي رجال كل فئة منهم بآرائهم حتى تهدأ النفوس ، عندما تجد إجابة شافية لما يدور بداخلها .

رأى المحللون ، أن ما حدث عبارة عن تمثيلية محبوكة ، بل فيلم نسجت خيوط أحداثه تلك الدول التي تمقت السلام مقتها للموت والمرض ، وأن هذه الدول هي التي أطلقته ، بعد أن دربته تدريبًا عاليًا . . فهي تملك المال ، وتملك كل وسائل التكنولوجيا الحديثة . . وراح المحللون يُدللون على صدق تحليلهم بتفنيدهم لتاريخ تلك الدول أعداء السلام ، وأطماعهم التي تفضحها بالأمس واليوم .

ويستكمل المحللون حديثهم بقولهم : " إن على الدول المحبة للسلام أن تتخذ حذرها ، وأن تفوت الفرص على تلك الدول التي أصيبت بالسُعار ، ولن يتأتى ذلك إلا عندما تقوم الدول المحبة للسلام ببناء الجدار الصلب بينها وبينهم ، وأن هذا الجدار لُحمته وسداه الاتحاد والعلم ، وأن الاتحاد والعلم بدايتهما انشاء التكتلات الاقتصادية ، والاجتماعية والسياسية التي لا تستطيع القوى كلها مجتمعة أن تقهرها ، لأنها ضد الزلازل ، والبراكين ، والعواصف ، وصدق الشاعر حين قال بلسان صدوق ، وقلب عقول :

كلما عَلَت الحمامة وحدها
أصبحت أصغر حجمًا
نقطة تاهت على الأفق الوسيعْ
وإذا طارت مع السرب بدت
غيمةً بين الغمامْ

وغـــــزَتْ درب الـنـجـــــومْ

بـجـنـاحِ لـلـحـمـــــام *

سكت المحللون قليلاً ، ثم أشاروا إلى بعيد ، والدمع يغالب أجفانهم وقالوا : "أقدر الناس على قيادة الناس هم أذكاهم وأوسعهم عقلاً ، وأفصحهم لسانًا ، ثم تنهدوا وقالوا مرة أخرى : " للجهل أحيانًا طيش ، ورعونة مثل طيش القوة تمامًا . . فالطفل الذى تهدهده أمه . ويُدَلِّله أبوه ، وينعم الوجود حياله ، لا يعرف حقيقة ما يدور حوله ، فقد يتورط فى مخالفة من المخالفات ، أو جريمة من الجرائم ، يدفع لقاءها ما تبقى من عمره ، كما يدفع لقاءها الأبرياء من ورائه .

أما نظيره الذى يعيش فى صرامة وانصياع ، والتزام ، يخضع لصوارم الحياة فى تجلد وصبر ، ومثابرة ، لأنه يؤمن دائمًا بالمثل السيار الذى يقول (طول التجارب عقل وسوء الظن عصمة) ، وهو يتهيب كل تقلبات الحياة من حوله ، فيعيش فى حرز من رعونتها ، وجمودها ، فينجو هو ومن معه " .

أما رجال الدين فكان لهم رأىٌ مفاده " أن الحمام ليس مواليًا للإرهاب ، بل هو مُوفَدٌ من قبل السماء ، وهو آية من آياتها ، أرسلها المولى عز وجل لينذر أهل الأرض أن يكفوا عن عبثهم ، فهم لم يُخلقوا للعبث ، بل خلقوا للعمل فى سلام لإعمار الأرض ، وليس لهدمها . . وأنه على الإنسان اللبيب أن يفهم ويعى رسالة السماء ، وإلا صُبَّ عليه العذابُ صبًّا ، وهو ما حدث عن طريق جُند السماء (الحمام) الذى يذكرنا بالطير الأبابيل ، التى أرسلها ربُنا إلى أصحاب الفيل .

* الحمامة والسرب ، د. كمال نشأت ، ديوان مسافر ولا صول ، مطبعة الحرف الذهبى ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .

عندما تجاوزوا حدودهم كبشر .. فإن كان الله قد أرسل الطير الأبابيل لهذه الفئة الباغية في الماضي ، فليس بالأمر الغريب أن يرسله ربنا اليوم لهذه الدول التي عثت في الأرض فساداً ظنًا منها أن القوة تدوم ، والحقيقة أن القوة لا تدوم ، وإن دامت دمرت .

والأمر الذي يدعو للإعجاب والفخر هو أن أحد رجالات الدين الأفاضل زفر زفرة كاد يتصدع لها قلبه ، ثم قال في حدةٍ : " بئس مايقولون ، ولبئس مايزعمون من خلال أبواقهم .. ثم سكت وقال بصوت يتعثر من الضنى : " إن الحمام ليس بحمام إرهاب ، بل هو حمام سلام ، وكان الأولى بأعداء السلام أن يقولوا : " إن الذي حدث على أيدي الحمام ماهو إلا ثورة في سبيل الحرية مشكورةٌ ، وحرب على الإستعباد مشبوبةٌ ، وغضبةٌ في سبيل الحق والعدل محمودة ، لكن ثمَّ آذان عن سماع الحق مسدودة ، وأذهان عن تدبره مصدودةٌ .

ولكن رجال الدين ، أثاروا الحمية والحماسة ، داخل قلوب وعقول أبناء الدول المحبة للسلام عندما قالوا : "إنه ربما تكون ثمة علاقة تربط بين أطفال الحجارة، وحمام الحجارة .. وأن على العقول أن تجتهد لتعرف مَن علَّم مَن ؟ هَل علم الأطفال الحمام ؟ أم أن الحمام هو الذي علم الأطفال أن غوغاء القوة ونارها لا يوقفهما ويُطفئ لهَيبهما إلا القوة المضادة " .

أثار سؤال رجال الدين شهية الجميع الذين راح بعضهم يسأل البعض الآخر "ترى مَن علَم مَن : أطفالُ الأبابيل ، أم حَمَام الأبابيل " ؟

آثارت آراء المحللين ، ورجال الدين غضب ساسة أعداء السلام الذين بات شاغلهم الوحيد هو : كيفية الرد على تلك الآراء بآراء أخرى معاكسة لها ،

وراحوا ينفقون ببذخ على مزاعمهم الباطلة ، وانقسموا إلى فرق شتى تجادل ، وتنافق ، وتنسج أنسجة الموت مرة أخرى .. والحمام يقف فوق رؤوسهم يبكى بكاءً حارًا على حالهم ، ويتوعدهم هذه المرة بالحملات التى تقصم ظهورهم ، وتعقد ألسنتهم ، وتسحق أسلحتهم إلى الأبد .. تُرى هل يفلح الحمام هذه المرة ؟ أم أن أعداء السلام سوف يرقون منابرهم ـ منابر الباطل ـ فيذكرون إحسانهم إلى هؤلاء وهؤلاء وصفحهم عنهم ، وإساءة هؤلاء وهؤلاء إليهم ، فتحسبهم صادقين ، وتظن أن عشاق السلام كاذبون .

ولا نحسب إلا أنهم مسرفون فى سفك الدماء ، وبث الفزع والرعب فى نفوس الناس والدول ، مُسرفون فى غضبهم ، والدليل أنهم إن غضبوا ركبت الهموم ، وارتعدت فرائص الذين يجادلونهم .

ومخطئ كل من يظن أنهم سوف يتكفأون من الخجل على أفعالهم ، وكيف يخجلون ؟ والوجوه قد تعددت فى كل رأس من رؤوسهم ؟ .

* * * * *

محتويات الكتاب